نقد العقل المصري المعاصر

د. زين عبد الهادي

الكتاب : نقد العقل المصري المعاصر

المؤلف : د. زين عبد الهادي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٨٠٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 64 - 7

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٦٤/٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : محمود ناجيه

نحو عصر التسامح

نقد العقل المصري المعاصر

(القاتل الاجتماعي ومتلازمة السلطة)

د. زين عبد الهادي



إلى جنيّتي الصغيرة (تسابيح)

من أجل مستقبل أفضل لكِ وجيلك القادم

الثأر

"... ولكنه يُبَيّنُ لنا وفق تصور الإغريق في المرحلة الكلاسيكية لونًا من ألوان الظلم منذ غابر الأيام الذي يبيح لمن وقع به إجحاف أن يثأر من ذرية مَن أجحف به، وكان هذا أيضًا مبدءًا عند العبرانيين القدامى الذين يبيحون لا الثأر من الخصم وحده بل من أفراد أسرته كذلك".

ثروت عكاشة

"إن علينا إما أن نعطف على الناس، أو أن نقضي عليهم، إذ إن في وسعهم الثأر للإساءات الصغيرة، أما الإساءات الخطيرة والبالغة فإنهم أعجز من أن يثأروا لها، ولذا إذا أردنا الإساءة لإنسان فيجب أن تكون الإساءة إلى درجة بالغة لا نضطر بعدها إلى التخوّف من انتقامه".

ميكيافيللي[1]

---

(١) عبد الرحمن منيف. مدن الملح: بادية الظلمات.ط ١١. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٥ ج٥. ص٢٩

"أصبح ثأرنا صغيرًا وضعيفًا، لأننا لم نعد نستطع الثأر من كل من أطاحوا بأحلامنا، ولكن هذه الأشكال الضعيفة من الثأر أصبحتْ تسري في جسد الوطن تقطيعًا؛ سريان النار في الهشيم".

زين

لماذا نقد العقل المصري؟

"لقد وجهوا أسئلة عن كل شيء".

هذا هو المأزق الذي ترَكَنا فيه فلاسفة اليونان منذ آلاف السنوات، وضعوا آلاف الحلول وتركوا خلفهم ملايين المشكلات الجديدة، واستمر من بعدهم آلاف المفكرين على هذا المنوال، لكننا حين نتطلع حولنا، نجد أسئلة جديدة تبرز من جديد، أسئلة ذات طعمٍ لاذعٍ وحريفٍ ومُدمٍ، أسئلة ذات رؤوس سوداء تظل تخرج من كل مكان، حتى يتحول الأفق إلى لوحة سوداء كاملة، ليخرج السؤال الأخير:

أليس هناك نقطة ضوء واحدة في كل هذا السواد؟

يا إلهي.. ما الذي نفعله بأنفسنا وبوطننا، ما الذي يفعله الحاكم والمحكوم، ما الذي يفعله السيد والخادم، ما الذي يفعله المثقف والأمي، إننا جميعًا نحرق أجمل عطايا التاريخ لنا، نحرق الوطن، ونحرق أبناءنا، ونحرق أنفسنا، ونحرق تاريخنا دون أن نعي، أو نعي ونردد: "عليّ وعلى أعدائي"، نصرخ كـ(شمشون) ونستمر في سفك الدماء، دماء أنفسنا، ودماء الآخرين، ودماء الوطن الذي أصبح مستباحًا بين قبضة الحاكم وقدم المحكوم.

ما هو أصل مشكلتنا الحقيقية، هل أعودُ لمفردات تقليدية مثل الديكتاتورية؟ هل هي الديكتاتورية فقط؟ هل نضم لها الفقر؟ هل نضم لها ميراثنا التاريخي، من الانسحاب والنكوص وسلوك الثأر الذي ينتشر في كل شيء، تحقير الذات، انهيار القيمة والقدوة، الخزعبلات الدينية، اللامبالاة الجماعية، الشك، فساد السلوك، الكذب، عدم قبول الآخر، الذل والاستذلال، قتل النهر، موت الضمير، سياسة حافة الهاوية، مجتمع الفوضى، النطاعة الحكومية؟ إضافة إلى عشرات العوامل السلبية الكامنة التي تلعب في كل الشوارع كمهرج شيطاني يرتدي كل الأسمال فيعبث بالجميع، لا يفرق في عبثه بين قرية ومدينة، أو قصر وكوخ، أو سجن وحديقة عامة.

أعتقد أن الأمر أبعد من ذلك بكثير، ربما علينا أن نقوم بوضع كل تلك الحالات تحت المجهر الاجتماعي والنفسي والوراثي والسياسي.
هناك أحداث ما على المستوى الفردي والجمعي تتكرر بشكل أو بآخر، هذه الأحداث في عموميتها مقيتة وقاتلة، وتكرارها يدل على نية العمد المبيتة لارتكابها، وبالتالي فتجاهلها يعد مشاركة في تلك الجريمة أيضًا.

لقد أصبح المشهد الذي تعرضه وسائل الأعلام أمام العالم، أننا أسوأ أمة في التاريخ، صورنا كدليل دامغ على القذارة والأمية والسلوك الفاسد تملأ مجلات وجرائد العالم، هل وصل الأمر بنا إلى هذه الدرجة، لنضيف إلى هذه الفوضى، فوضى ما يحدث في الشارع في مصر، لصالح من كل هذا؟ لصالحنا كمصريين؟!

هل نحن فعلاً الذين قال عنهم (جمال حمدان) إننا الشعب الوحيد المؤهل في العالم للوقوف في وجه الولايات المتحدة لما نمتاز به من ذكاء، وما نمتلكه من تاريخ، ومع ذلك فقد لوّثنا كل شيء وما زلنا؟

هل ستنفع تلك اللطعات الملونة التي نلطخها على صورة الوطن الكلية في إعادته إلينا جميلا؟

لن أزايد على حبنا لوطننا، ولكنه حب الدببة، وخنجر (بروتس)، وتآمر (كلوديوس)، وسيوف (روبسبير)، ومصباح (نيرون)، ولكن أين هو هذا الوطن الآن؟ ما الذي يمتلكه الآن؟ ما هي تركيبة العقل المصري الآن؟ هذا العقل الذي أصبح عُمره يربو على النصف قرن، هذا إذا اعتبرنا أن ثورة يوليو هي العقل الجديد المعاصر الذي بدأ منه المصريين في القرن الماضي حين شعروا بأن الوطن وطنهم، وبأن هناك ما يسمي بالحرية والعدل والمساواة والحق، لنكتشف بعد سنوات من

التجارب والخطايا المتوالية، أن حبنا كان للكلام وليس للفعل، فنحن لم نتخلص من الملكية، ولم نتخلص من الإقطاع، ولم نتخلص من الاستعمار، لقد استبدلنا الأقنعة فقط، تغيرت الوجوه، إلى وجوهٍ من أبناء الوطن كانتْ أسوأ في تعاملها مع أبناء جلدتها...

هل يساوي كل هذا العدد من المعتقلين منذ الخمسينيات وحتى اليوم العدد نفسه في عهد الملكية؟، الإجابة بالطبع لا، وألف لا، ومع ذلك فقد ارتكبت الجمهورية الخطايا نفسها التي اُرتكبتْ في عهد الملكية.

هل يمكن أن أصدق بأن أزمتنا كانت إدراك العلاقة بين الحرية والديمقراطية، وبأن حريتنا المنتظرة كانت تُمضغ دائمًا بين فكيّ أصحاب السلطة والمثقفين؟!

لقد أخذنا نفكر طويلاً فيما وفيمن سنتوجه إليه بالنقد، وهي نفس الحيرة التي تملكتْ تاريخًا طويلاً من البشر حين فكروا، هل العقل فقط هو الذي يستحق النقد، هل نضم إليه الإحساس والمشاعر؟ هل نضم إليه كذلك إرادة المصريين؟ هل هي كل ذلك؟ هل هو ميراثنا الطويل من السكينة؟

بشكل عام لقد تكلمنا في ذلك جميعًا، لكن العقل كان هو المرصود، بسبب معرفته المتشابكة، والتي أدتْ في النهاية إلى العديد من

الضلالات التي أعتقد أنها لوّثت جذور هذا العقل، فوصل إلى هذه الحالة من التراخي واللا مبالاة، أو إلى أقصي حدود عبقرية الانحراف، أو إلى المشاركة المحمومة في تدمير الذات.

ربما عليّ أن أعترف أيضًا بأن هناك من الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذا العمل: الأول أنني منذ عدة شهور حضرت جلسة جمعتني بأكثر من ثلاثين أستاذًا جامعيًا، ودار الحديث كله حول حالة الانهيار التي يشهدها العقل المصري منذ عدة سنوات على المستويين الفردي والجمعي، استوقفني في الأمر أن الجميع شارك مؤكدًا على هذه الحالة الانتكاسية، وفي فورة الحديث أدركت أننا جميعًا -بقدرٍ ما- قد وصلنا إلى حالة من النهليستية الجماعية، كأنها حالة من الانتحار والعدمية المفرطة التي لم يعد بالإمكان إيقافها، كأن لا شيء يستحق الإشادة به في هذا البلد الموعود دائمًا بالمصائب وغرغرينة التسوس الاجتماعي اللا إنساني، كل هذا الإحساس الانفعالي الطاغي دفعني إلى أن أسألهم سؤالاً واحدًا: أليس هناك أي نقطة ضوء في نهاية هذا النفق العبثي؟ وبالطبع لم تكن هناك إجابة.

والسبب الثاني أولادك وأولادي، ما هو مستقبل عقولهم إذا كان هذا هو ما نرزح تحت وطأته؟ ولم أجد إجابة للوهلة الأولى.

والسبب الثالث كان سؤالاً يترنح على شفتي دائمًا ثم يسقط أمامي فجأة فارشًا الأرض بلون الدم: ما هو السبب الحقيقي الذي قامتْ من أجله الثورة إذا كان هذا هو ما أصبحنا فيه في النهاية؟

لماذا يحدث ما يحدث؟ قرأتُ الكثير من الكتب والمقالات لمفكرين مصريين وعرب وغربيين، ومع ذلك لم أستطع الاهتداء للسبب الحقيقي وراء كل ما يحدث، كان الجميع يحاول تبرير ما فعله الجميع، بشكل فئوي ومتضامن، ومع ذلك لم يقل لنا أحد ما هو الصواب، نرجسية الفكر كانت هي المسيطرة، سأستعير تلك الجملة التي أشار إليها (عادل حمودة) في كتاب نشره في منتصف الثمانينيات عن أزمة المثقفين مع (عبد الناصر)، كانت لـ(عبد الناصر)، حين كان يحاول البحث عن مخرج لكل ما يحدث محاولاً الاستعانة بآراء الحكماء والعقلاء، كان دائمًا يفاجأ بأن كل من كان يتحدث معه في تلك الفترة البعيدة من تاريخ الوطن يقول له كلمة "أنا"، "أنا الحل"، "الحل عندي"، "أنا أرى". أليس هذا تقريبًا ما يحدث الآن؟ أم أننا نكرر أخطاء الماضي التي حاول أحدهم أن يُخلصنا منها لكنه لم يستطع لأن الجرذان تعود دائمًا لنفس البالوعة.

منذ زمن ونحن لا نرى سوى "أنانا" فقط ولا شيء آخر، تتبعتُ كل الطرق والخطوات، وقلتُ لعلّي أنا الآخر واحدٌ من الذين تعلموا

رفضَ أفكار الآخرين دون أن يتفحصوا فيها، وأقلقني هذا التصور، وعدتُ لأبّدي قناعتي بالعديد مما تمت كتابته من قبلُ حول أوضاع المصريين، إنها وجهات نظر مختلفة بعضها صحيح وبعضها يعوزه الصواب، وربما أكون واحدًا من هؤلاء، إذن فأنا لا أملك سوى أن أقدم رأيي دون أن أجزم بأنه صحيح.

السبب الرابع لكتابة هذا العمل هو رغبتي في تقديم إجابة لصديق عزيز سألني لماذا هذا العمل إذا لم تكن ستغير شيئًا؟ وكان محقًا في جانب في تساؤله، لكنني لا أكتب هذا العمل لأنفض يدي مما يحدث في مصر الآن، وأعطي ظهري لوطني، أنا أكتب هذا لأتفحص فيه كل صباح بأن هناك وطن أحبه وأتمنى له - رغم كل ما فيه - أن يصبح الوطن الأول في العالم في كل مؤشرات التنمية، أتطلع لأن تختفي منه المعتقلات، والترزية، أن يختفي حكم الفرد، أن تختفي اتهاماتنا لبعضنا البعض بدون سبب، أتطلع بأن أتنفس فيه هواءً نظيفًا، وأن أسير في شوارع نظيفة تملؤها الورود والأشجار، أن لا أجد شحاذًا ينتظر على قارعة الطريق، أتطلع أن نصبح جميعًا أصدقاء، وأتطلع بأن نعطي كل ما لدينا وليس بقدر ما نأخذ نعطي، أتطلع لأشياء كثيرة جميلة.. فهل هذا كثير؟

هذا العمل أيضًا ليس هجومًا على السلطة وليس دفاعًا عنها، ليس دفاعًا عن (عبد الناصر)، فليس هناك من يملك قدرة الدفاع عن (ناصر) إلا (ناصر)، كان (ناصر) يحلم بالكثير لهذا الوطن، لكن الكثيرون في الداخل والخارج نهشوا لحمه حيًا وميتًا، ربما يكون له بعض الأخطاء، ولكن مَن منا بلا خطيئة؟ لقد حقق (عبد الناصر) في مصر يوتوبيا جديدة للحكم، ولكن نحن من لوّثناها، حقق الأمان للعمال والفلاحين في الوقت الذي كان فيه كل المثقفين والسياسيين غير قادرين على تغيير أي شيء في بلد حَكَمَته الملكية والإقطاع والإنجليز والفرنسيين عشرات السنوات، فإلى متى كان يمكن أن يستمر هذا الوضع؟

أيضًا يجب أن أعتذر إلى أبى – رحمه الله – بعد أن مات، كان يضع صورة (عبد الناصر) في كل غرفة، ولم أفهم لماذا إلا بعد ذلك بسنوات عدة، حين تعرفت على كتابات لثلاثة أشخاص ليس بيني وبينهم سابق معرفة شخصية، فقط من كتاباتهم، وحاورتُ العشرات والمئات، لأدرك في النهاية أن ما فعله (عبد الناصر) لم يكن إنسان آخر ليجرؤ على فعله، فقد كان هو (ناصر) الوحيد، رحمه الله وطيب ثراه.
لم يكن مكمن المشكلة الحقيقية فيه، بل فينا، نعم فينا كشعب، مازلنا نرتع في الخرافات.

وعلى ذلك فأنا أتوجه بهذا العمل البسيط إلى الناس، إلى العمال والفلاحين وسائقي التاكسي وربات البيوت والتلاميذ والطلاب، إلى الأجيال الجديدة الناشئة، إلى كل من يريد أن يساعد في إعادة بناء وطن جميل، له في التاريخ والثقافة والعلم والفن فتوحات لن يستطيع أحد أن يُهيل عليها التراب أبدًا... أبدًا.

أؤمن أيضًا بأن الحروف لا تُغير المعالم لكنها تنير الطريق، فلا يمكن وضع روشتة سياسية وإصلاحية في بضع أوراق، لكن يمكننا الإشارة إلى مكمن العلة ومن ثم وضع خطوط عريضة لما يمكن أن نقوم به جميعًا، ولما يمكن أن أبدأ به مع نفسي.

شاهدتُ جمال وطني الأخاذ والبديع في لحظة صفاء لا تتكرر من فوق أحد البنايات العالية بميدان قريب من النيل لأكتشف أن وطني مازال جميلاً، وأنه جنّة العالم إذا أردنا له أن يكون كذلك.

سأبدأ من المقولة الأولى للفلسفة، أو الفلسفة اليونانية على وجه التحديد: "لا أعرف سوى شيء واحد، وهو أنني لا أعرف شيئًا"، سنبدأ من الإنسان ونترك المؤسسة للمسؤولين عنها، ليس بحثًا عن تفسير للسلوك الفردي أو المؤسسي ولكن بحثًا في الجذور، ليس بهدف

العلاج، فهناك بعض الأمراض التي استفحلت وأصبح علاجها مستحيلاً، وربما يكون علاجها الوحيد هو البتر من جسد الوطن، وإذا كان الأمر لن يستقيم إلا بهذا فمرحبًا بالتضحية بجزءٍ من الوطن من أجل الحفاظ على بقية الوطن، وهذا الجزء لن يكون إلا بعض القيم الجديدة القديمة الخبيثة التي حان وقت اقتلاعها من الصدور ليعود الوطن وطنًا للجميع.

زين

القاهرة

٢٠٠٦/٩/١٥

(١)

السلطة.. ثأريتحكم

ما هو سلوك كل المرتبطين بأي شكل من أشكال السلطة في مصر؟ والسلطة هنا لا تعني الحكم وحده، بل أي شكل ممكن أن تمارس فيه السلطة من قبل أي رجل أو امرأة أو طفل في الشارع المصري، مجرد أن ينتابه إحساس بأنه قريب من السلطة، بإحساسه أنه محمي بشكل أو بآخر بسبب مصاهرته للسلطة في شكلها الرمزي؛ أو حتى في شكلها الطبيعي، وبأنه من الممكن أن يمارس أي شكل من أشكال السلطة الدونية كلما هبطنا في مؤشر السلطة سواء السياسية أو الاجتماعية.

ربما هذا هو ما يسمي بمتلازمة السلطة، إن ممارسة هذا الإحساس بأشكال مختلفة صعودًا وهبوطًا على سلم السلطة، ربما في ظني واحد من أهم وأحط أمراضنا الاجتماعية والعقلية، وربما يعود السبب وراء

هذه الممارسة إلى غياب الثقافة وتغلغل الإحساس بالخوف والرغبة في الثأر، إحساس بالدونية وعدم الأهمية يتحول إلى أشكال مختلفة للضجيج والصوت العالي.

سألت صديقي : لو أحضرنا أي رجل أو امرأة من الشارع ووضعناه على كرسي الحكم في مصر فما الذي سيفعله حين يستقر به المقام؟
أتتني ضحكته الطويلة العنيفة ثم سكتَ قليلاً، وقال: لنسأل السؤال بطريقة أخرى، هل ستكون هناك فروق في الحكم بين أكثر الدعاة للديمقراطية وأشد غلاة الديكتاتوريين في حكم مصر؟، فمثلاً لو أحضرنا أكثر الشعراء رومانسية، أو أحد الشعراء الذين ذاقوا الأمرين في المعتقلات والسجون في بر المحروسة من شرقها إلى غربها، أو أكثر الوزراء عمرًا في السلطة، أو أحد كناسي الشارع الذين يمدون بأيديهم لكل سيارة لامعة وهم يكسرون رؤوسهم استعطافًا، أو المتسولون الذين يتطلعون إليك بعينين ملؤهما طلب الشفقة والإحسان، أو تلك المرأة الملتحفة بالسواد التي تحمل فوق كتفيها طفلين وتمسك في يديها علبتيّ مناديل ورقية تعلم جيدًا أنك لن تشتريهما ولكنها ستحصل منك على ما تريد، أو رئيس أحد الأحزاب الذي ينادي بالديمقراطية

لكل المصريين وهو في ذات الوقت من غلاة الديكتاتوريين، أو أحد هؤلاء الأولاد المغيبين في المخدرات، أو صبي الميكانيكي أو القهوجي، أو مدرس في مدرسة أو حتى فراش فيها، أو أستاذ بالجامعة أو أي محامي أو طبيب أو حتى فتى إعلانات...الخ، اختر من تشاء من الشارع أو من القرية أو الكفر أو النجع، بلطجي من شارع، أو رجل من المستضعفين؛ وضعه على كرسي الحكم، ترى ماذا يمكن أن يحدث، هل سلوك كل هؤلاء سيكون واحدًا، أم أن السلوك سيختلف، ومتى ستزيد مساحة الديمقراطية، ومتى ستقل؟

هل ستكون هناك فروق إحصائية وموضوعية بين هؤلاء، وإلى أي مدى؟ هل ستتعجب إذا قلتُ لك غن سلوكهم جميعًا سيكون واحدًا، وأنه لن تكون هناك فروق إحصائية تذكر.

لا تتعجب، لا يمكنني أن أنكر أن هذه الفرضية قد يتمتع بها كل الناس في العالم، وليس مصر وحدها، والتاريخ العالمي يمتلئ بنماذج من هؤلاء، ويمكنني أن أتناول امرأتين؛ واحدة في التاريخ العالمي (كايزابيلا بيرون)، وأخرى في التاريخ المصري هي (شجر الدر) على سبيل المثال لا الحصر.

إن فكرة الملكية والسيطرة وحب السلطة والقيادة تولد مع بعض البشر ولا يمكن هدمها، ويجب تشجيعها ورعايتها، وتقويمها كي تسير في الطريق الصحيح، ولكن مشكلة السلطة في مصر ليست في الفرد فقط، لأننا في ذلك نشبه بقية شعوب الأرض، مشكلة السلطة في مصر يحددها مثل فولكلوري قديم في مصر "قال يا فرعون إيش فرعنك، قال ما لقيتش حد يلمني"، هذا هو جوهر المشكلة، ولا جديد في المسألة حتى الآن، لذلك تصبح مشكلة الحاكم، أي حاكم في التاريخ المصري كله هو إما استمالة هذا (الحد)، أو قتل هذا (الحد)، أو وضع كل (الآحاد) في المعتقلات والسجون، فالمشكلة لم تعد ما يمكن أن يقوله هذا (الحد)، المشكلة في نظر الحاكم أن هذا (الحد) يتطلع إلى (الكرسي) حتى لو لم يقل ذلك صراحة، يتطلع إلى السلطة، يتطلع إلى الحاكم، وهو ما لا يطيقه هذا الحاكم، فحتى الإنسان البسيط في حياته يكره أن ينظر أحد إليه طامعًا فيه، هل يطيق أحد منا ومنكم أن ينظر أحد آخر إلى ما في يديه، ألن يتهمه بالحسد والحقد؟ وانظروا إلى أنفسكم في الغرف المغلقة، أو الأحاديث الجانبية، ستتحدثون فقط عن الطامعين فيكم، في أموالكم أو مناصبكم، أو في كراسيكم، ولن تتذكروا فقط سوى ما تمتلكونه ولا شيء آخر، فلا شيء آخر يستحق التذكر سوى فعل الملكية.

أنا أشك في أكثر المدافعين عن حقوق الناس بأنه لو استلم السلطة، فإنه خلال سنوات سوف يتأرجح كرسيه على بحر من الدماء.
فهل قدمتْ الثورة حين قامت حلولاً لهذه المشكلة، أم زادتها مأساوية، وأصبح للسلطة روابط كيميائية تتصل بالثأر والانتقام.

يدعي البعض أن كل ما فعلته الثورة كان حالة من الانتقام، تعالوا ننظر فيما قاله (فولتير): "المساواة أكثر الأشياء طبيعية وأكثرها خيالاً ووهمًا في الوقت ذاته"، وقال أيضًا عن الثورة الفرنسية: "جاء دور المساواة، وأُرسلتْ الحرية إلى المقصلة لقطع رأسها!".

السلطة في مفهومها لا تعترف بالمساواة، فليس هناك مساواة بين حاكم ومحكوم، وكرسي الحاكم في المنظور التصويري يكون أعلى من كرسي المحكوم، أليس كذلك؟ فكيف لهذا الحاكم الذي يمتلك السلطة؛ أن يطبق المساواة؟
لقد طبّق المساواة على من أراد الانتقام منهم - الإقطاع والأمراء والباشوات - وأعطى الناس، أليس ذلك مساواة؟ ولكن المساواة هنا بنيت على ممارسة للسلطة بشكل استبدادي، لماذا؟ لأن هناك تاريخ طويل من الفشل الذي يضم كل الأحزاب المصرية قبل الثورة في أنها

لم تستطع أن تقدم للمصريين شيئًا، كانت كلها وعود طائرة في الهواء ربما منذ ثورة ١٩١٩م، فلم يتحقق أي شيء.

أمسك (عبد الناصر) السلطة وبمصر ١٨ مليون نسمة أغلبهم من الفقراء والمعدمين خاصة في فئات العمال والفلاحين، فكان أول قراراته تصب في صالح هؤلاء، تشغيل العمال، ثم الإصلاح الزراعي، لقد كان مأزقه في حالة العداء التي نشبت بينه وبين المثقفين الذين لم يستطيعوا أن يفهموا أنه رجل عسكري عملي يدرك المأزق المصري على حقيقته في ذلك الوقت، وكانت تلك هي الحلول التي يملكها، كان ما يقدمه في ذلك الوقت نوع من اليوتوبيا التي تحققت بشكل أو بآخر في أرض الواقع، وبالتالي كان لابد والأمر هكذا من وقوع ضحايا، فليس هناك ثورة في التاريخ ليس لها ضحايا ولم تخضب يداها بالدماء، فهل كان (عبد الناصر) مدركًا لكل ما سيحدث بعد ذلك؟

أعتقد أنه سؤال يحتاج الكثير من المناقشات، لكن في ظني أن كل ما حدث بعد ذلك كان نوعًا من الانتقام المنظم المتبادل سواء من السلطة أو سواء من الشعب أو سواء من المثقفين الذين أصبحوا في حالة عداء دائم مع السلطة، هذا الانتقام الذي أدى في النهاية إلى تدمير كل شيء، كل من حكم مصر أو كان له جزء من السلطة بعد كل ثورة أو

هوجة في مصر، أو قاد انقلابًا أو ثورة؛ سمها ما شئت، فكتب التاريخ المدرسية تُملي علينا الكثير من الضلالات، كل من فعل ذلك حصل على نصيبه من الخير والشر من (تورتة) الحكم في مصر، بعضها كان خيرًا لصاحبه، وبعضهم كانت وبالاً عليه، كانت وبالاً وخيرًا على (مصطفي كامل)، ووبالاً وخيرًا لـ(سعد زغلول)، وكانت وبالاً على (جمال عبد الناصر)، وكانت أكثر وبالاً على الوحيد الذي مات فقيرًا معدمًا (محمد فريد) هناك بعيدًا على أحد تلك الأرصفة الباردة في أوروبا، ولولا أن قيض الله له أحد التجار لما كانت جثته قد عادت لمصر.

أليس هذا أمرًا عجيبًا، أن تقوم بالثورة وتفعل ما هو في صالح الأغلبية الأمية وغير المتعلمة، ومع ذلك يراك الجميع مستبدًا، ما الذي كان يمكن أن يفعله (عبد الناصر) مع أمة فقدت رأسها؟ ألم يكن مطلوبًا منه أن يكون هو الرأس؟ ألم تكن له الكثير من الإيجابيات التي يقف التاريخ شاهدًا عليها، والسلبيات أيضًا؟ لكن من منا لا يُخطئ؟

قامتْ الثورة، وبعد أربع سنوات أُممت قناة السويس قبل أن تسقط المدة القانونية لشركة قناة السويس بعدة سنوات تعد على أصابع اليدين، ودخلنا فيها حرب ٥٦م لننتصر سياسيًا، ثم لنخسر عسكريًا واقتصاديًا الكثير، فهل كان الأمر يستحق؟

بعد خمسين سنة من حدوث ذلك يجب أن نسأل أنفسنا، هل كان الأمر يستحق؟ ألم تكن الصين أولى بهونج كونج مثلاً منذ عشرات السنين بدلاً عن انجلترا؟ ألم نرى أن (عبد الناصر) بعد أن نفض يديه من أعدائه الداخليين من الأحزاب والمثقفين، وبعد أن أعطى العمال والفلاحين في مصر – الأمة المعدمة – ما لم يكونوا يحلموا به ولو بعد مليون سنة، تحول إلى أعداء الأمة الخارجيين؟ ألم يكن الرجل يفكر؟ بلى، وكان على صواب مهما حاول المزايدون أن يدعوا.

يُفسر الكثيرون قانون الإصلاح الزراعي بأنه رشوة اجتماعية قدمتها الثورة للشعب المصري، مما أدى بعد ذلك إلى تفتيت الرقعة الزراعية، وأدى إلى استحالة استثمار هذه الأراضي من قبل الفلاحين مباشرة، ومما حدى بهم إلى إعادة التعاقد مع بعض الملاك القدامى أو بيعها إلى ملاك جدد[1]، وإلى انهيار المحاصيل الزراعية في مصر، إلى الحد الذي شحذنا فيه القمح بعد ذلك، فهل كان (عبد الناصر) السبب؟

---

(١) نفس المشكلة شهدها العراق عام ١٩٧١ على الرغم من صدور قانون الإصلاح الزراعي به عام ١٩٥٨، إذ أعاد الفلاحون الأرض للملاك القدامى لإعادة زراعتها لعجزهم عن استثمارها مقابل حصة من الأرض.

الحقيقة أننا يجب أن نخرجه من هذه المسألة تمامًا، فنحن في النهاية السبب، نحن من كان العالم يأكل ويلبس مما لدينا، ولا ينتهي الأمر عند ذلك، بل ها نحن نعود للإقطاع من جديد، بتملك بعض الناس ملايين الأفدنة تحت أسماء وهمية، وأصبح التحايل والتلاعب وترقيع القانون هو سيد الموقف في النهاية تحت اسم الرأسمالية الوطنية.

ما هو السلوك الذي تركته سنوات ما بعد الثورة على الناس؟، أصبح المال السائب كثيرًا، فتحول الكثيرون إلى لصوص، حالة يطلق عليها الكثيرون "الأنفلونزا السياسية" فحين تفتح النافذة فجأة لابد للجميع من أن يصاب بها، المشكلة أن الأنفلونزا تحولت إلى وباء ومرض مميت، فمن نحاكم وإلى من نتوجه بالاتهام؟ هل كان (عبد الناصر) السبب، أم نحن الذين لم نستطع أن نتعلم أبدًا مما فعله ومما تركه لنا؟

في التعليم طبّقت الثورة المساواة، فهل كانتْ على خطأ أم صواب؟ أنا أحد أبناء الثورة الذين استفادوا من التعليم المجاني، والآلاف والملايين مثلي، فهل كان مطلوبًا من (عبد الناصر) أن يدخل كل مدرسة ويعلم كل طالب، ينسى الكثيرون أن التعليم له مراحل مسؤولية متعددة، ربما يجب أن أتجرد من عاطفتي وأعترف بأنه على الرغم من فتح

التعليم لكل الناس إلا أن كل الناس حصلوا على تعليم مشوه، إما ناقص علم أو ناقص ثقافة، والمصيبة أن الاثنين كارثتان بكل المقاييس، إضافة إلى ذلك فإن نسبة الأمية مازالت مرتفعة مقارنة ببقية شعوب الأرض، ومن حصل على تعليم؛ حصل على تعليم رديء، فأي مقارنة متواضعة وبسيطة بين خريج اليوم (المتوسط) - وفقًا لتصريحات كل وزراء التربية والتعليم، والتعليم العالي؛ بأن الامتحانات دائمًا في مستوى الطالب المتوسط - وبين خريج ما قبل الثورة في الثقافة واللغة والخط والقيم والقراءة والعلم؛ ستصب في صالح الأخير جملة وتفصيلاً، ولكن كم كان عدد من يتعلم؟ وكم كان عدد الأميين؟ ما السبب في أن مخرجاتنا أصبحت رديئة؟ (عبد الناصر)؟ لا أظن فنحن السبب، فقد أصبنا جميعًا بالبرد، لم نصدق أننا أحرارًا، فبدأنا نتصرف بالمائل السائب، كم مدير شركة ظهر أنه كان لصًا، وكم من وزير ارتشى، وكم من عضو منتدب دخل السجن؟ العشرات، ولو دقق القانون قليلاً لزججنا في السجن بالآلاف من اللصوص، لصوص الثورة، لصوص اليد المطلقة، الذين أصابتهم حالة الحرية التي وجدوا عليها أنفسهم فجأة.

من هنا أصبحتْ كل مخرجاتنا رديئة، أم أننا فهمنا الدعوة إلى التعليم بشكل كامل خطأ، وها نحن نعود مرة أخرى بعد سنوات من الثورة إلى الجامعات الأجنبية والخاصة، وبدأنا في خصخصة خجلى للتعليم الجامعي من خلال شعب اللغات التي تم افتتاحها في كليات التجارة والحقوق وغيرها، هذا اعتراف صريح وضمني بأننا كنا مخطئين، فهل نستمر في الخطأ، فأي دولة تلك التي يمكن أن تستوعب وظائف لمليون خريج من الجامعات والمعاهد والدبلومات الثانوية الفنية؟

ها هو غول البطالة يفتح فكيه على مصراعيهما فتنشب أنيابه في جسد الوطن جريمةً وفسادًا وكل أشكال الخطايا الاجتماعية، ها هم رجال السياسة قد بدأوا في فتح الأكاديميات والمعاهد الخاصة والجامعات الأجنبية، ها هم كل من آمنوا بالثورة يلغونها في طرفة عين.

كل ذلك يدعوني مرة أخرى للتساؤل، إذا كان قد انتهى الأمر بنا إلى ذلك، فلماذا قامت الثورة؟

بالمناسبة قيام الدولة بتعليم كل الناس ليس بدعة ابتدعها (عبد الناصر)، لقد كنت في زيارة لـ(مالطا) منذ عدة شهور، وهي دولة صغيرة تقع في قلب البحر المتوسط انضمت إلى دول الاتحاد الأوروبي، وهناك علمتُ بأن التعليم تتيحه الدولة لكل المواطنين مجانًا، إذن فلم يقم (عبد الناصر) ببدعة.

ليست المشكلة (عبد الناصر) أو غيره، لقد مرّ على مصر مئات الحكام منذ بداية التاريخ، البعض منهم كان مصلحًا عظيمًا، والبعض منهم كان في وادٍ، والناس في وادٍ آخر، البعض منهم ترك لنا ما يتحاكى عنه العالم، والبعض منهم لم يتركنا سوى كومة من العظم، لم تستطع السلطة أبدًا على مدى القرون الماضية أن تستقطب الناس، كانت هناك دائمًا سدودًا بينها وبين الناس، تم زرع الخوف في كل أفئدة الناس من السلطة، الخوف من السلطة حالة تمس كل الشعب المصري ولا أستثني من ذلك أحدًا، فمن يملك السلطة يملك الشرطة والسجون والمعتقلات والخوازيق والتعذيب، وهو ما عاش فيه المصريون طويلاً، طويلاً جدًا، وحان الوقت لأن يختفي كل ذلك، وتعود للناس الثقة في أنفسهم وقوتهم وزعمائهم، أصبحت المشكلة كلها تكمن في أفعال بدائية اجتماعية أراها تتضخم في سلوك الناس ونفوسهم.

أعود مرة أخرى لمصطلح (السلطة)، ماذا تعني السلطة في القاموس المصري ولدى العقل المصري؟ هل تعني إصلاح حال الفقراء؟ لقد حاولنا ذلك ولكن ما فعلناه كان قريبًا من المثل المصري (جاء ليكحلها فعماها)، هل هي الحكم؟ لقد ارتكبنا أسوأ أشكال وأنواع الخطايا وليس مجرد أخطاء عادية في الحكم سواء الملكي أو الجمهوري.

كان للملكيين أعذارهم فهم ليسوا مصريين ولم يشعروا أبدا بأحاسيس المصريين البسطاء، ولكن ماذا كان عذر الأحزاب، ومهما قيل بأن الجميع كان يكتب قبل الثورة ما يريد، نعم كان يكتب... وكفى؟ لكن من الذي قام بالتغيير - والتاريخ لا يعترف إلا بالحركة، لا يعترف إلا بمن قام بالتغيير. ما أريد الوصول إليه، كون الثورة قامت بالتغيير، ونحن لم نتغير، بل ها نحن الآن نعيد كل الأمور إلى ما كانت عليه.

السلطة فعل غير عادي، وصاحب السلطة يضمر بعض صفات الإله، وصفات لاعب العرائس، وصفات القاتل، وصفات السجان، وصفات تنكرية كثيرة.

ولماذا لا يستقيم حال السلطة في مصر؟، لأن الشعب لا يشارك فيها، ألم يقل (نيتشة) في يوم من الأيام: "حقًا إنني أسخر كثيرًا من الضعفاء الذين يظنون أنفسهم صالحين، لأنهم ليس لديهم مخالب لينشبوا بها"، إن ما يفعله المسؤول الأول عن السلطة في مصر منذ بداية التاريخ هو تقليم أظافر الشعب ونزع كل مخالبه، وبالتالي فإن قيادة قطيع من الأرانب يصبح عملاً في غاية السهولة، أليس هذا ما فعله كل حاكم في التاريخ المصري؟، سياسة تقليم الأظافر بجبال القوانين التي تقيد

الحريات، وكل أشكال ممارسة الديمقراطية العرجاء والمشوهة والممجوجة، بعضها كان يجوز في الفترات الانتقالية كالحالة التي كانت عليها الثورة عند قيامها، أما ما حدث بعد ذلك فمن الملام فيه؟ الجميع... مرة أخرى لا أستثني من ذلك أحدًا.

هل يمكن أن نقول بأن المواطن المصري العادي يعاني من نوع من الشيزوفرينيا فيما يتعلق بخلية السلطة الوراثية داخله؟ إذا كنتَ حاكمًا فأنت الإله، وإذا كنت محكومًا فأنت الأرنب، والخارج عن هذا التصنيف قلة قليلة للغاية، قلة شاذة، قلة تشبه إحصائية نسبة عدد المرضى بالسرطان أو فيروس (سي) أو من لديهم (هيموفيليا) الدم ونسبتهم وتعدادهم بين المصريين، أليس هذا اكتشافًا جديدًا يضم إلى قائمة اكتشافاتنا العملاقة التي لم يهتم بها أحد، ولن يهتم بها أحد.

أحد معاني كلمة (سلط) و (سلطن) في اللغة طول اللسان والقوة والقهر، هذه هي المعاني التي احتفظنا بها لكلمة السلطة عبر تاريخ طويل من الزمن المبني على القهر والاستعباد، ولا يقتصر ذلك على حاكم، وإنما يمتد إلى كل رب عمل، رب أسرة، في الأغلب الأعم، على كل شخص تم استئمانه على شخص آخر. أنظر لأصدقائنا

بالجامعة، إنهم يمارسون – أغلبهم – نوعًا مقززًا من الديكتاتورية على الطلاب وعلي زملائهم الأقل منهم مرتبة. أتطلع إلى الأسطى في محل الميكانيكي، إنه يمارس قوة غاشمة على صبيانه. أنظر إلى رئيس مجلس إدارة صحيفة – أيًا كان منهم سواء الراحلون أو الجدد عدا من عصم ربي – فنجده يُمارس السلطة بأسوأ أنواع الخسة، فلاح – ينتمي لمهنة الصحافة النبيلة – أتى من قريته ليمارس السلطة في أسوأ صورها رغم انتماؤه الشكلي لطبقة المثقفين، ليثبتَ لي أنّ مثقفًا واحداً فاسداً أسوأ مليون مرة من مليار أمي فاسد. حتى المثقفين الذين يجلسون على مقاعد السلطة، كلهم أشكال للسلطة لا تعد ولا تحصى، فهم إما مدافعون عن السلطة بشكل مثقف أو مدافعون عن الثقافة بشكل متسلط، وندرة هم من دافعوا عن الثقافة وحدها، ووحدها فقط.

إذن هناك أمر ما يتعلق بالوراثة السلوكية، أو سلسلة ردود الأفعال على القهر الذي يمارس من أقصى درجات سلم السلطة علوًا حتى أدناها مرتبة، لقد أردنا في كل قوانيننا التي سنناها أن نضمن ديمقراطية للحاكم في اتخاذ القرار – الحاكم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى– (ديمقراطيته هو فقط لا مؤاخذة)، وأن يتحرك بحرية كما يريد، ولكن تقل هذه الدرجة في الديمقراطية حتى تنقطع كلما هبطنا

في سلم السلطة، ربما إلى الحد الذي أصبحتْ فيه القرارات تُتخذ في الدول العظمي ويترك للحكام في دول العالم الثالث حرية زمنية في تصريف هذه القرارات، أما بقية الشعب فلا حس ولا حركة ولا حرية ولا حتى وجود أحيانًا.

وأعود إلينا فأجد سلسلة السلطة التي تبدأ قوية شكليًا – على الأقل– في أعلى الهرم ثم تبدأ في الضعف كلما نزلنا في حلقاتها درجات لتختفي الديمقراطية تمامًا وتحل محلها صفات الألوهية التنازلية التي تصل لحد سفك الدماء حين يجد صاحب السلطان أي تمرد عليه، ويمكنكم قراءة كل تقارير مركز البحوث الاجتماعية والجنائية لتكتشفوا هذه الحقيقة دون كثير من العناء.

ما الذي يدفعهم لذلك؟ غياب الرقابة، الديكتاتورية المسماة خطأً بالديمقراطية، تغلغل الخنوع، الرغبة في القوة والثراء. تصبح الدوافع في النهاية لا معنى لها، حين تكون السلطة (كذيل الكلب عمره ما ينعدل)، وحتى إذا كان العلاج هو الديمقراطية، فقد استخدمنا الديمقراطية في التاريخ المصري المعاصر أسوأ استخدام لتحقيق أقصى أحلامنا الديكتاتورية قسوةً وتفردًا.

(٢)

القاتل التسلسلي .. الثأر

الثأر؟.. وما علاقة الثأر بالعقل المصري؟ وبعدين إيه حكاية القاتل التسلسلي الاجتماعي دي يا عم؟ هل هذا معقول؟

سألني صديقي وقد اتسعت عيناه من الدهشة ثم استطرد، ثم إذا قبلنا بفكرة الثأر في العقل المصري، فكيف انتقلت هذه للمؤسسات؟

لم أفكر أبدًا في الثأر كعقيدة مصرية أصيلة، ولكن كلمات مثل (العين بالعين والسن بالسن) لها جذور تاريخية ودينية، وعلي الرغم من أن الدين حضّ أيضًا على التسامح (عند المقدرة) (فمن عفا وأصلح)، ومع ذلك فإن رائحة الدم وشواء اللحم الحي أقوي من أي تأثير ديني، وهذه واحدة من معضلات هذه الدراسة؛ من أين أتى هذا التناقض بين سماحة الدين، حتى المسيحية (من ضربك على خدك الأيسر)، وبين الرغبة المتأجحة في الثأر؟ كيف رأى (غاندي) العجوز الحكمة البينة حين قال: "لو اتبعنا مبدأ العين بالعين لأصبح العالم كله أعمى".

لقد تحول ثأر القرية والكفر – ثأر الدم – إلى ثأر معنوي ومادي في المدينة، تحول ثأر القروي وابن الجنوب المبني على الدم والتنكيل بالجسد إلى ثأر لغوي ومعنوي ومادي لدى المثقف، ما الذي فعلته الثقافة بالعقل المصري، في الوقت الذي كان يجب لفكرة الثأر أن تغيب وتتوارى، بفعل الثقافة والمتوارثات الحضارية للعقل المصري، تحولت إلى نوع شيطاني لا يحتمل.

تعالوا ننظر إلى المثقف، أستاذ الجامعة – مثلاً – حين يشعر بأن أحد أبنائه من المعيدين أو المدرسين قد انتقد فكرةً له بشكل علمي مهذب، تتمحور المسألة بعد قليل من مرحلة عدم قبول الآخر، إلى مرحلة الثأر اللغوي والرفض للآخر بعنف، إلى تهديده في مستقبله وحياته الأكاديمية، ويحمل الطرف الأضعف هذه الغصة والإهانة داخله ليمارسها بشكل أعنف على تلامذته، فلا يبقي ولا يذر، وهكذا في بقية الوظائف والأعمال، كل صاحب عمل يرتكب الجريمة الأولى، يترك في البقية رغبة في الثأر تكاد لا تنمحي، فتظهر في شكل ردود أفعال متوالية نزولاً في سلم السلطة إلى أدني درجة.

تبدأ علاقة الثأر في مراحلها الأولى لدى ابن المدينة بعدم قبول الآخر، وتبدأ في التوسع شيئًا فشيئًا إلى حالة الرغبة في القضاء على الآخر تمامًا وربما لو استطاع إلقاؤه في حمض نيتريك مركز لفعل.

حسنًا لقد انتهينا في هذه السلسلة إلى ما بدأنا منه، كان الدم هو أول فعل ثأري في التراث، أصبح الدم هو آخر الأفعال في الحاضر المرير.

ما الذي رسخ فكرة الثأر إلى هذه الدرجة في العصر الحديث في العقل المصري؟ هل ساعدت الديكتاتورية المستمرة على ذلك؟ وهل كان للسياسة دورٌ فعال في ذلك؟ وهل طحنُ المعارضين واعتقالهم ونفيهم وربما قتلهم؛ نوع من الثأر أو القتل الجماعي، والطريق بين قبول الآخر ورفضه؟

أمامي عشرات الحالات لزملاء في الجامعة والمؤسسة والمستشفى والوزارة والإمارة التي ترسخ هذه الفكرة – على الأقل في ذهن العبد لله – ووصل الحال بالبعض إلى الانتحار، كأنه نوع من الثأر من الذات، (بيدي لا بيد عمرو).

توقفنا جميعًا أمام حالات ثأر القرية والجنوب، ولم نتوقف أمام حالات ثأر المثقف والمتعلم في المدينة وكل من أعطاه الله هبة ليقف على أمرِ الناس، هل أستطيع الربط بين الخلية الوراثية للثأر لدى الناس، وتمحور وتطور فكرة الثأر العقلي واللغوي وصولاً للثأر المادي لدى المصريين.

نحن جميعًا لا نُحب الدماء، ولكننا نقتل بكل الوسائل الأخرى التي بأيدينا، سواء كانت سلطة أو مركزًا أو كرسيًا على درجة أعلى على نفس السلم، إن مقاعد الثأر ليست متناثرة عشوائيًا، إنها سلسلة من الدرجات على سلم الثأر من الدماء حتى الثأر العقلي، حتى الخنوع والاستسلام في النهاية، كل ذلك يؤكد فكرة متلازمة الثأر، فإن لم تثأر فإنك تنهار على ذاتك وتخنع، تثأر من ذاتك أنت لأنك لا تستطيع الثأر من الآخرين.

إن الثأر يشبه هذا القاتل التسلسلي، يتحول من ضحية إلى أخرى، فإما أن نحتفظ بالشكل نفسه من عملية قتل إلى أخرى، أو نحتفظ بفكرة القتل نفسها من ضحية إلى أخرى، علينا إدراك العلاقة في كل مرة بين كل جريمة ترتكب وأخرى، ولأن الثأر جزء من تركيبتنا الوراثية الثقافية فإننا نرتكب جريمة الثأر أحيانًا دون أن نعي، ليس من المهم في كل جريمة أن يكون هناك قتيل، بل المهم إفراغ الشحنة الثأرية من داخلنا، ربما نقف عند أول جريمة نرتكبها، وربما تستمر الشحنة في عدد من الجرائم سواء على نفس الضحية أو تنتقل إلى ضحايا آخرين، سواء كانت موجهة لمجموعة أشخاص أو لشخص أو لكائن حي، أو لشيء كالانتقام من أعمدة الكهرباء ومن الشوارع ومن السيارات

ومن مقاعد الدراسة ومن الحوائط ومن المرور عكس الاتجاه ومن الإنجاب الكثير، إنها حالة انتقامية مركبة، إفراغ شحنة الغضب.

تخيلوا ماذا يحدث حين ينقلب الحكم إلى حالة ثأرية بين الحاكم والشعب، بين الحاكم والمثقفين، بين الحاكم ومنتقديه، بين الحاكم والكلاب اللاهثة لإرضائه من جهة وبين هؤلاء الذين يراهم كلابًا ينتقدونه، عليك أن تقف مع ذاتك وتحاول كشف مكامن الثأر المضاد داخلك، ستجد العديد من الأشكال، ولن تجد أي شيء إذا كنت ملاكًا، إن الثأر قد يتمثل في نظرة أو كلمة أو فكرة عابرة لم يرها أحد وقد يتمثل في بحيرة دماء، وبينهما تقع كل أشكال الجريمة.

إن ثأر الحاكم من الرافضين له، أو الرافضين لفكره يشمل كل التاريخ المصري المعاصر، نحن أمام إعجاز علمي وسياسي واجتماعي وتاريخي في قدرة الحاكم العربي وليس المصري وحده، على التنكيل بكل أعدائه والثأر منهم، بإلقائهم في غيابات السجون والمعتقلات والصحراء المغلقة التي تمتلئ بالثعابين والعقارب وكل الحشرات والحيوانات القاتلة. وأداة الثأر دائمًا هي السجان.

أما الإنسان المواطن الضعيف فهو لا يخلو أيضًا من خاصية الثأر طالما تمكن من ذلك، حتى بعض الحيوانات تتذكر من أساء إليها وتكون لديها قدرة على الثأر حين تتاح لها الفرصة. إذن الثأر غريزة حيوانية لم يستطع الإنسان تهذيبها أو الارتقاء بها، لقد تمحورت فكرة الثأر لدى الإنسان هنا إلى حدٍّ لعين ودامي، تطورت وارتقت لتحل فكرة الانتقام والتنكيل على مستوى جمعي.

تقف عبارة (سبينوزا) كالغصة في حلقي: "كونك عظيمًا لا يعني أنك فوق الإنسانية فتتحكم بالآخرين، بل يعني أن تقف فوق الشهوات، وأن تحكم نفسك بنفسك". ائتوني بهذا الحاكم العادل المنزه الذي نظر داخل نفسه أولاً وارتضى العدل والحكمة والصبر والضمير والحب لكل الناس، هل هذا نبي أم حاكم؟ وللأسف حتى لو ظهر نبي الآن فإن أمن الدولة – في أي دولة من دول العالم الثالث – سيضعه في السجن متهمًا إياه بالجنون، إنه سيتخلص في تلك الحالة من مصدر تهديد للسلطة وليس مصدر تهديد الدين، وهو ما يعكس حالة التناقض بين قبول الحاكم للدين كوسيلة لتثبيت السلطان، وبين رفض الحاكم لأي فكر ديني سيمثل تهديدًا لسلطانه.

لم نستطع التخلص من فكرة الثأر والانتقام من كل من أساءوا إلينا عن سوء نية أو حسن نية، لم نستطع الانتقال من فكرة الثأر إلى فكرة التسامح، فلا نحن تسامحنا، ولا نحن أعرضنا عن من أساء إلينا، بل زدنا الطين بِلة، قد تمثل الثورة حالة الثأر الكبرى في التاريخ المصري المعاصر ليس فقط فيمن أساء إلى الشعب ولكن فيمن أساءوا إلى أنفسهم وعقولهم وتاريخهم، ولذلك لم تصدق الثورة كل من حاول الاقتراب منها، في هذه المرحلة لم يكن بإمكانها أن تثق في أي شخص إلا نفسها، فهي مرحلة التغيير في التاريخ المصري المعاصر، ومن هنا بدأت المشكلة الحقيقية، لقد بدأت العملية العكسية أو الثأر من الثورة ومن (عبد الناصر) عقب وفاته؛ أو قبل وفاته بسنوات قليلة، وتجمعت كل الجرذان التي طردتها الثورة لتنهش في قائدها، في لحظة الثورة لم يكن يمكن أن تتم الثورة دون الثأر من كل من خدعوا الشعب البسيط الأميّ الذي لا يشارك لا في الحكم ولا في أي شيء، وهو هنا حق مشروع، ولكن ما هو المشروع في الثأر بعد ذلك من الثورة، وما هو المشروع في الثأر من كل أشخاصها بغض النظر عن اختلافنا أو اتفاقنا معهم، كان لا بد للثورة أن تقوم، وكان لا بد لها من أن تثأر من كل من خدع هذا الشعب المسكين طوال قرون، ربما غالت في ثأرها، ولكن الثأر هنا تم من أجل السواد الأعظم فهل كان يستحق؟

نعم كان يستحق حتى يمكننا أن نتعلم جميعًا وأن نعمل جميعًا، ولكننا أدركنا الحرية خطأ، فوقعنا في متاهة من ردود الأفعال المتوالية التي أودت بنا إلى ما نحن عليه الآن.

ما هي هذه السلسلة البذيئة من حالات الثأر والانتقام التي نمارسها جميعًا بوعي أو بدون وعي، الجميع يثأر من الجميع كأننا في حلقة مفرغة، لقد زرع الشك داخلنا فكرة الثأر، التي تحولت لدى الفرد والنظام إلى أن كل شيء مُدان حتى قبل أن ينطق، وإلا فليفسر لي أحدهم ما أشار إليه القانون رقم ٢٨ لسنة ١٩١٠م في المادة ٤٧ مكرر، وتعني العقاب على النية[1]، أو قانون اجتماع أكثر من خمسة والذي يعود لعام ١٩١٤م ومازال ساريًا .! تحولتْ فكرة الشك إلى نظرية المؤامرة وما دمنا قد فقدنا الثقة في أنفسنا فقد فقدناها في كل شيء.. كل شيء.

تحولت فكرة الثأر لدى رجل الشارع وحتى المثقف إلى حالة دائمة لا شعورية يمارسانها ضد أنفسهما قبل أن يمارسانها ضد الآخرين،

---

(١) أشار د. عصمت سيف الدولة أيضًا إلي "أنه منذ عام ١٩١٠ كانت هذه المادة هراوة ترهب كل الجماعات والجمعيات والأحزاب والتحركات التي تفكر مجرد تفكير في مقاومة الاستبداد. وتفسد الضمائر وتعلم الناس الحذر من مجرد الحوار خوفا من أن يؤدي الحوار إلي اتفاق وتشكك الناس في أقرب الناس إليهم خوفا من التبليغ عما يتحاورون فيه أو يتفقون عليه حتى في جلساتهم العائلية الخاصة". فى: عصمت سيف الدولة. هل كان عبد الناصر ديكتاتورا؟. ط٢. بيروت: دار المسيرة، ١٩٨٣.ص ص ٧٩-٨٠.

وتطورت فكرة الثأر المباشر حديثًا، لتحل محلها فكرة الثأر غير المباشر، بمعنى أنه لو أراد كل صاحب يد أن يثأر منك، فإنه لا يتوجه نحوك مباشرة، وإنما يبحث عن أحبائك وأكثر البشر اقترابًا منك فيثأر منك فيهم، وهنا يتشوش عقلك فتنهار شيئًا فشيئًا، أصبح للقاتل الاجتماعي التسلسلي في تلك الحالة شكل جديد، وتحولت فكرة الدم بالدم، إلى فكرة القول ثم الأذى غير المباشر ثم الأذى المباشر ثم الدم على المستوى الفردي والجمعي، ليس لها حدود تقف عندها إلا بعد إرضاء كل نوازع الثأر الداخلية.

وها نحن جميعًا أخيرًا نقف على عتبات الثأر الاجتماعي التسلسلي غير المباشر فننهار جميعًا ولا يبقى شيء، فقد أصبحت كل عيون المجتمع عمياء.

(٣)

الثأر والسلطة والبحث عن الضمير

يعني أنت مش ناوي تجيبها البر؟ ما معنى الضمير إذا كان يتم إخصاؤك كل صباح؟ إذا كنت تتعرض للسرقة في كل خطوة؟

يا صديقي لقد ضاع الضمير في الأزقة والطرقات، كنتُ أظنُ أن عصر الثورة سيعيد تشكيل الضمير، ولكنه استعبده، ثم ألقى به في أزقة ودروب صحراوية، ومن يوم خروجه لم يعد. ضمير إيه اللي أنت جاي تقول عليه؟!

ابتسمتُ محاولاً تصنع الهدوء وكنتُ أغلي من الداخل، هل كنتُ أحاول الثأر منه، لم تجف بعد الكلمات التي كتبتها في الصفحة السابقة، لكنه في النهاية صديقي وكلامه صحيح تمامًا لا غبار عليه، تاه الضمير ولم يعد أحد يبحث عنه،ولم يعد أحد يهتم إن رحل غير مأسوف عليه.

هل يمكن القول بأن الضمير لدى (سقراط) كان في عبارته الأخيرة قبل أن يموت: "يا كريتو أنا مدين بديك إلى أسكيبوس، أرجوك لا تنسى أن تدفع هذا الدين"، هل هذا هو الضمير؟

ما رأيكم بهذه العبارة التي كانت تقولها جدتي: "لو ضميرك ارتاح ها تفضل سواح"، ماذا كانت تقصد، هل راحة الضمير لا تتفق مع راحة الجسد، وهل راحة الضمير تتطلب التعب والكد والاجتهاد؟

كم من طلبة الجامعة والأساتذة الذين سرقوا بحوثًا لأقرانهم أو من الخارج (ولطعوا) اسمهم عليها، كم من رجال الأعمال اغتنى بطرق غير مشروعة، كم من تاجر غش في بضاعته، وكم من مهندس غش في بنايته، وكم من محامٍ غش في قضاياه، كم من الجرائم ترتكب كل يوم فيكِ يا محروسة دون أن يهتز جفن أو يؤرق الضميرُ أحدًا، فهل أصبحنا شعبًا بلا ضمير؟

ما الذي قتل القطاع العام في مصر؟ غياب الضمير
ما الذي قتل المؤسسة التعليمية والصحية؟ غياب الضمير.
هذا السؤال أتركه لصديقي، أما السؤال الأهم: ما الذي قتل الضمير أو من الذي قتل الضمير؟

هل سندور في فلك الديكتاتورية والجهل والمرض والفقر؟ أعتقد أن المسألة أعمق من ذلك، كل ما ذكرته عوارض لغياب الضمير، هل الضمير مرتبط بالدين والقانون والرقابة الشعبية؟ هل الضمير مرتبط بالعقل أم بالإرادة لدى الإنسان المصري؟

لقد تولد عن غياب الضمير ممارسة الفساد بغير إحساس، أو كأن الفساد حالة طبيعية (لأن المجتمع كله فاسد أو حرامي) وبالتالي فلا حاجة لرقيب داخلي إضافي، هل غاب الضمير بسبب الطمع؟، بسبب الحاجة؟، بسبب استشراء الفساد؟

غياب الضمير يعني قاتل جديد خال تمامًا من أحاسيس الوجل أو الخوف، أصبح القاتل بارد الدم والأعصاب، خالٍ من النخاع الشوكي ومن مصادر الإحساس، كائن لا فقاري، لا تهزه سوى نشوة الثراء والدم، من الخضار والفاكهة المسرطنين، والطعام المحفوظ المنتهي الصلاحية، ومن بيع المخدرات، ومن الرشوة المستشرية، ومن الكلمة الصحفية المداهنة المعجونة بالرياء ودماء الضحايا، والقوانين العليلة، أصبح هناك قاتل يخطو بقدميه في دموع الناس وأجسادهم وأحوالهم، من القطارات النعوش السائرة على قضبان، إلى البواخر النعوش إلى

السيارات النعوش إلى المسارح النعوش، إلى التوربيني نعش الأطفال، قتلة بلا ضمير، قاتل لا يهتم بأي شيء، وأصبحتْ هذه الممارسة تنطبق على الجميع، الجميع يدوس ويلطخ يديه بدماء الجميع، بدماء من هم أضعف منه، مما يعود بي مرة أخرى إلى فكرة القاتل التسلسلي الاجتماعي الذي يقتل دون ضمير.

الضمير في اللغة يعني استعداد نفسي لإدراك الخبيث والطيب من الأعمال والأفكار والأقوال، والتفرقة بينها، واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها.

وفق هذا التعريف اللغوي البسيط، فإنني لا أعتقد أن الضمير حي لدى الإنسان، وإنما مات، مات لدى الحاكم – والحاكم هنا هو أي شكل من أشكال السلطة – فهو لا يستحسن إلا ما يصب في مصلحته، خرجت القوانين المصرية سيئة السمعة، لأن من يضعها أو من وضعها ومن نشرها قد مات الضمير لديهم، ومن قرأها وصمت وسكن – خوفًا أو لا مبالاة – قد مات الضمير لديه، الضمير يموت إذا كانت البيئة، كل البيئة التي يعيش فيها قد فسدت ومات فيها الأمل، وهو بهذا المعنى يعني أن العقل فسد وكذلك الجسد، فهو لا يقوي ولا يجرؤ ولا يحتمل أي رد فعل، وأصبح الأمر مرة أخرى

قياس عددي، فنسبة من لديهم ضمير يساوي نسبة من لديهم تضخم في الغدة الدرقية في مصر، الضمير ليس له حجم محدد، فإما لديك ضمير، أو ليس لديك ضمير، فسكوتك عن مكروه أو أذى لشخص وعدم وقوفك بجانب من وقع عليه ظلم لا يعني أنك تعيش بنصف ضمير، بل أن ضميرك قد مات وشبع موتًا، وأن ما يحركه مجموعة من القيود الوهمية التي يمكنك التخلص منها في أي وقت. الضمير قيد داخلي يعطل كل نوازع الشر داخلك، ويحرك كل قدراتك ودفاعاتك ، فلا تقبل على نفسك ما ليس لك وعلى الآخرين ما ليس لهم.

تعال ننظر للمدرس ودروسه الخصوصية وعدم شرحه في الحصة، وقبوله لأي هدية، ومساومته الطلاب على الدروس، وعدم قراءته لأي جديد، واستهزاؤه بصاحب عاهة من طلاب، وتراخيه في دخول الحصة في أي وقت، ولهفته على قبض مرتبه بعد كل ذلك، هل هذا يعني أن ضميره "تعيش أنت"؟

عشرات الموظفين الذين لا يذهبون إلى أعمالهم، ويقوم زملائهم بالتوقيع بدلاً منهم، والاستهزاء بك إذا حاولت لفت نظرهم، حالة جماعية من غياب الضمير، لم تعد المسألة على (قد فلوس الحكومة) ولكن أصبحت طمعًا بلا حدود للطمع، وشراهة بلا قيود للشراهة.

تعال للمحامي الذي يقبل أي قضية، ويغالي في طلباته، ويؤجل القضية عشرات المرات، ويستحل لنفسه الحصول على أتعابه بشكل مستمر، ناهيك مع ما قد يفعله مع امرأة أو رجل، لكل حالة تصرفها، أين الضمير إذًا؟ بارك الله فيك، الضمير "تعيش أنت".

ورجل الأعمال الذي اغتنى من بيع المخدرات والمتاجرة في الآثار وبيع المأكولات الفاسدة والتي انتهتْ صلاحياتها ثم دخل مجلس الشعب أو الشورى ليدافع عن حقوق الناس! ويمرر القوانين بأرقام من الرشوة التي وصلتْ إلى حد فلكي، أي ضمير هذا الذي نتحدث عنه؟

أستاذ الجامعة الذي يبيع كتبه لطلبته بناءً على كشوف الأسماء، ومن لم يشتري لا مانع من رسوبه، أو لا مانع من مراودة طالبة عن نفسها طالما يمكن الحصول عليها، ولا مانع من أن يقوم ببيع كتبه لنفسه من شنطة سيارته أمام الكلية، ولا مانع من كتابة تقرير أمني في زميل أو زميلة، ولا مانع من عدم التدريس، وسحب الكارنيهات وممارسة كل أشكال السلطة، أين الضمير؟

والأسطى الميكانيكي أو الكهربائي، تذهب بسيارتك بعيب لتخرج وقد كدت تشحذ أو تتسول وأنت لا تفهم ما يحدث، السيارة بها ألف عيب، أين الضمير؟

والطبيب الذي يعمل بالقصر العيني أو مستشفى عام، لا مانع من أن يقوم بتحويلك إلى عيادته الخاصة، وألف كشف وألف تحليل فتذهب لطبيب آخر وثالث ورابع لتكتشف السلوك نفسه، أين الضمير؟

وصاحب المدرسة الذي يعمل لديه المدرسون بالحصة ويرفض التعاقد معهم أو تعيينهم أو توفير مرتب شهري لهم، ويفصلهم أثناء الإجازة الصيفية، ويأكل أموال الوزارة في كرشه، أين الضمير؟

ورئيس تحرير تلك الجريدة الحكومية -الجرائد الحكومية بدعة بالمناسبة- الذي فصّل لنفسه دورًا بأكمله في جريدة، ووضع مقابض الأبواب من الذهب الخالص، والذي فَصَل صحفيين شرفاء، والذي استحل لنفسه أموال ومكافآت الآخرين، وصنع لنفسه (٢ حمام جاكوزي) وابتاع لنفسه القصور والعزب، وهرّب الأموال التي سرقها إلى البنوك بالخارج... آه حالة مبتذلة ومخزية وقاسية على غياب الضمير.

وأصحاب مصانع وشركات الأدوية الذين يقومون بإجراء تجاربهم على شباب في عمر الورود في مقابل بضعة جنيهات، لينتهي عمر الولد خلال سنوات خمس على أقصى تقدير، أين الضمير؟.

إن سلسلة غياب الضمير مثل سلسلة الثأر، إذا كان مَنْ أمامك بلا ضمير فلماذا تحتفظ بضميرك، ولمن؟، ستسقط على ركبتيك في النهاية وتتسول.

لقد خلق أول شخص في التاريخ المصري غاب ضميره هذه السلسلة النهائية المجتمعية من غياب الضمير، لاحظ كل ما يحيط بك ستجد غيابًا تامًا للضمير، من أسفلت الشوارع ومطباتها إلى الحفر (السربرايز) إلى انقطاع الماء والكهرباء وزيادة القذارة واختفاء جراجات العمارات وتحويلها لمخازن تحت سمع وبصر الحكومة، والبناء غير القانوني وتبوير الأرض الزراعية - أثناء الانتخابات بالذات، ولا أعرف سر هذه الظاهرة - ومخالفات المرور وشراء رجال الشرطة لعربات الميكروباص، والميكروباصات المشوهة، والتاكسي المشوه، والأطعمة المنتهية الصلاحية، وأستاذ الجامعة الموظف، والموظف المرتشي، وحارق أجساد المصريين، ومغرق المصريين، و... الخ.

كلها حالات تشير إلى غياب الضمير الفردي ثم غياب الضمير الجمعي مُمثلاً في القانون والدين.

بموت الضمير مات الذوق والإحساس وتضخمت صفات الطمع والشراهة، وأصبحت الدخول الطفيلية للمصريين بنسبة ٩ إلى ١ أي أن

الدخول الرسمية للمصريين واحد من عشرة والباقي دخول طفيلية، كحالة جبل الجليد الذي يختفي تسعة أعشاره تحت سطح الماء بينما يظهر على السطح العُشر الأخير، الضمير لدينا يكاد يختفي، من يحتفظ بضميره في هذا المجتمع الآن إما مجنون أو معتوه أو من رحم ربي.

الضمير تم استئصاله بشكل جماعي دون حاجة إلى تدخل جراحي، والسبب في ذلك هو هذا القاتل التسلسلي الاجتماعي، أصبحنا نقبل بالغش الجمعي بعد أن كان حالات فردية لنشارك فيه جميعًا، وأصبح كل من لديه ضمير إما متسولاً أو شحاذًا، أصبح كل مكون من مكونات الحياة فاقدًا لأهم عنصر كان فيه وهو الضمير. انظر إلى المحال التجارية، إلى لافتاتها ومداخلها وطريقة عرضها لبضائعها، خاصة البضائع المهربة أو المزورة بماركات عالمية.
انظر وتطلع إلى شكل الأرصفة والبالوعات المفتوحة خاصة في منتصف الشوارع بالضبط، نوع عال من التحدي لكل الاعتبارات الإنسانية.

انظر واستمع إلى نتائج الانتخابات المزورة، هل هناك فرق؟ هل من شيء يوحي لك بأن هناك رابط بينها؟ نعم.. فوضى عارمة وغياب كامل للضمير، كأننا سرنا في جنازة الضمير جميعًا دون أن ندري من هو هذا الذي كنا نسير في جنازته.

هل كانت الثورة مسؤولة عن إعادة استحداث الضمير؟ أم إعادة تشكيله؟ أم إعادته من متاهته؟ أم قتله إن وجد؟

الثورة بريئة من مسؤولية غياب الضمير، فقد غاب الضمير على المستوى العام بعد أن منحتنا حريتنا في الاختيار، بعضنا كان يريد الثروة بأي وسيلة، والطريق معروف إما أن تلغي ضميرك، أو تسير في نفس الطريق الذي سار عليه كل من أراد الثراء السريع، المال العام أصبح مستباحًا من الكثير فاغترفوا منه بكل الطرق، وبعد عدة سنوات اكتشفنا أن قبل الثورة كان لدينا ألف حرامي، وبعدها أصبح لدينا مليون، وهو رد فعل طبيعي لفتح الأبواب فجأة بعد سنوات من القهر والذل والعبودية.

أردنا الليبرالية بشكل مثالي فوقعنا في المحظور، نسينا ردود الأفعال، أو التأثيرات السلبية الجانبية، لم تحسب الثورة حسابًا لذلك لكنه حدث، ها هو ما يمكنني أن أدين الثورة فيه، ولكنها في رأيي (ليست مغسل وضامن جنة)، بمعنى أنها نظرتْ لما في يديها وليس فيما وراء يديها، عمومًا كان لا بد أن يحدث ذلك، وها هي السنوات قد مرت بعد الثورة، فهل انصلح حالنا أم نحن نعود إلى الوراء؟

كل مكتسباتنا الحقيقية من الثورة أصبحتْ تتجه نحو الاختفاء، فهل ذلك مُدبر ومخطط، أم إنه رد فعل طبيعي؟ هل هناك من يمكن أن ندينه؟ هل ما يحدث الآن صحيح؟

تعدى الأمر حدود إدانة شخص ما أو مؤسسة ما،إن أسوأ ما سيحدث لم يحدث بعد، إني أنتظر موت آخر مصري لديه ضمير، وحين سيحدث ذلك، تنتهي سلالة أفضل مَنْ حكموا الأرض، وأسوأ من أفسد فيها!.

(٤)

الذاكرة و الذكاء .. الحلال و الحرام .. والثأر

يتفق أغلب الفلاسفة يا صديقي العزيز على أن الوعي هو أول مراحل الإدراك، ويتبعه بعد ذلك العقل والإحساس والإرادة، لماذا نقتل حتى حالة الوعي الأولي لدينا؟، لماذا هذه العلاقات المجتمعية المشوهة التي تعلو فيها قيمة الذاكرة وتنطفئ فيها قيمة الذكاء؟، لماذا أصبحتْ الذاكرة – الذاكرة المشوهة – حلالاً، والذكاء المتقد حرامًا وشرًا منقطع لا فائدة فيه؟... متى بدأ يحدث ذلك وأين، في المحروسة التي كانت تشع نورًا وعبقرية على العالم؟
المأساة الأكبر أن هناك تشويهًا متعمدًا في الذاكرة المصرية على المستوى التاريخي والقيمي وليس على المستوى الفردي فقط، وهذا التشويه هو ما نحتفظ به الآن، أما الذكاء فكفر وارتداد عقابه التنكيل والقهر.

أتطلع في كتب التاريخ المدرسية فأجد حالة من الكآبة والتسطيح والمجون، فمتى كان تاريخنا يُكتب وفقًا للجان السلطة، ولجان كتبة السلطان من حاملي المباخر ولاحسي العتبات وماسحيها؟.

أتطلع إلى المُدرس في المدرسة والأستاذ في الجامعة وهم يخاطبون ذاكرة الأولاد بعنف، ويتعمد الأستاذ أن يأتي بكلمات مبهمة في محاضراته أو كتبه ثم يأتي بها على هيئة أسئلة ولابد لكل طالب وطالبة من أن تأتي إجابته وفقًا لما قاله الأستاذ، وقس على ذلك، الخروج عن ما قاله يعني خروجًا على النص، كأنه إتيان للفواحش، كيف يمكنك أن تدلي برأي في ما لا رأي لك فيه، كتابات وعقول كهنوتية لا تبقي على أي قيمة للإرادة، تسحلها وتقتلها في مهدها، وتنزع عنها غشاء بكارتها، ومن ثم يتم تدمير العقل الإنساني البريء الطامح إلى الحياة والنور.

كثير من هؤلاء يفعل ذلك كرد فعل سلبي على ما تفعله به الدولة، الدولة قطعت أنبوب حياة العبقرية عن الناس، الدولة في حالة تجمد فكري وعقلاني، ترفع شعارات لا تؤمن هي بها، والناس على دين ملوكهم، أو الناس ضد ملوكهم بأفعالهم السلبية كحالة اعتراض بدائية، كل من يملك موقعًا يُريد أن يمارس نفس أفعال الملك أو الحاكم أو السلطان أو الآمر والناهي، كيف تقف أمام موظف يطالبك بأن تبصم؟ لأن القانون يقول ذلك، أين عقلك وكبرياؤك وكرامتك، صائبون كل من يتخيلون أن القانون سلطان العقول، لكننا نعيش عصور القوانين سيئة السمعة والذكر، لا سلطان على العقل إلا الإرادة في التغيير.

آلاف الموظفين من أصحاب نظرية الارتباط الشرطي والتابعين لمدرسة (الجشطلت) النفسية يفعلون ذلك كل يوم لأن نفس الفعل يتم فيهم حين يتحول من موظف إلى مواطن، إنها سلسلة، حلقة مفرغة من الأفعال وردود الأفعال العدوانية.

يقول (بيكون): "البغض لا يولد سوى البغض، والحب لا يولد سوى الحب"، وها نحن نتحول أو تحولنا إلى مجتمع بغيض، يكره بعضه بعضًا، يمارس الرذيلة على نفسه وعلى الآخرين، والآخرون يفعلون نفس الشيء، الحدود النهائية للبغض، هذه هي أحوالنا الآن، وصلنا إلى أقصي حدود الكراهية، نمارس تعذيب الذات وتعذيب الآخرين، توقفت ملكة الإبداع لدينا، ماتت، رُجمت، سُلطت عليها آلاف الكلاب والضباع، تحولت ملكة الإبداع الإيجابي إلى ملكات سلبية لا تفهم سوى في العدوان والأنانية والغباء منقطع النظير، تحول مجتمع الحب إلى مجتمع لا منتمي، مجتمع يتحول فيه الحق إلى باطل، والباطل إلى حق، والصواب إلى خطأ والخطأ إلى صواب، وقوانين الرحمة إلى ترهات، هذا هو مجتمع تأليه الذاكرة المشوهة، الذاكرة العدوانية.

أتحسر على ملايين التلاميذ والطلبة، صفوة عقول المستقبل في المجتمع المصري، حولناهم إلى مجموعة من البلهاء الأغبياء وتم تحريم التفكير

عليهم، لأن التفكير يؤدي إلى ضلالات، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وهناك فرق شديد بين بعض المظاهر المتعلقة بالتفكير الإيجابي وتنمية مجتمع الذكاء والإبداع.

ما المانع في أن يقف بعض الطلبة أمام الكاميرات وميكروفونات الإذاعة ليدّعوا أنهم يقومون بكل الأعمال الفنية والإبداعية، ليتفرج العالم، بينما الحقيقة أن عقول بقية أعضاء جمعية مستقبل الوطن، بلا ذكاء ولا هوية ولا عقل ولا إرادة، وحين يتقدمون في السن يصبحون بلا إحساس، وبموت الإحساس يتحول الوطن إلى مساحة من الغابة، حيث سيطرة القوة الغاشمة، ما الذي دفعنا إلى ذلك ومن ومتى؟

مرة أخرى تقف الأسئلة يا صديقي عاجزة، وتصبح الإجابات فعلاً مرادفًا للذكاء، ولكننا أيضًا من ضمن قبيلة من فقدوا ذكائهم وإحساسهم وإرادتهم.

نحن وطن اللا مختارين، اعطني إنسانًا واحدًا من هذا الشعب كان له القدرة على اختيار رئيسه؛ أعطك أول بقعة ضوء في الوطن الذي تم اغتياله، ساهمنا جميعًا في اغتيال ذكاء الوطن ليتحول إلى هذا الأحمق الذي يردد الكلمات التي يستطيبها الآخرون، الآخرون فقط، وإذا دخلتَ إلى أعماق جوفه سوف تجد التهابات لا تعد ولا تحصى، سوف

تجد حلقومًا أكلته الكلمات الجوفاء التي أصبح يرددها مثل الأسطوانة المشروخة، الجميع يريد الدخول في الحوار، لكن لسان ذكائه قد قطع منه، وتم إرسال أعضاء جمعية الذكاء والتمرد إلى داخل القضبان، فالمسرح لا يتسع لأي خارج على النص، وسماء الوطن لا مكان فيه لمن يحلق خارج سرب السلطة، المسرح ينظر إليه الأغبياء على أنه حالة من ترديد الكلمات المحفوظة غيبًا في الذاكرة، ولا يدرون أنه دعوة للتمرد على الموروث والمكتسب، لكن المخرج الأخير لا يريدك أن تردد شيئًا خارج النص ويريد لملامحك أن تكون في حالة ثبات، ورنات صوتك ذات رتم ونغمة واحدة، لتكتشف أنك لا تمثل وإنما أنت غبي، أسطوانة مشروخة تنضم إلى بقية الأسطوانات.

لماذا أصبحنا شعب يكره العلم ويحب الفهلوة إلى هذه الدرجة؟ الفهلوة في تقديرك يا صديقي حالة من التذاكي المعيب الذي دمر كل ذكائنا الأصلي، فأصبحنا نتذكر فقط أنه كان لدينا ذكاء ولابد أن يخرج بأي طريقة وبأي شكل، فأصبحنا نتذاكى، حالة من الغباء والعبط وعدم التواصل والعدمية، ولأنها طريقة يمارسها الكبار؛ كل الكبار؛ فما العيب أن تنقل إلينا بالوراثة، ها نحن قد قتلنا أفضل ما كان فينا، وها نحن جميعًا نسير في جنازة ذكائنا غير آسفين عليه.

أصبحتْ عقولنا لا تعمل إلا من أجل لقمة العيش، هي الشيء الوحيد الذي يحتل ذاكرتنا، ذاكرتنا المشوهة بالكذب والخداع من كافة المستويات، بالوعود التي لا تتحقق، وبالديكتاتورية التي ترتدي أسمال الديمقراطية، وبحالة الفوضى المتطرفة التي أصابت كل شيء، ذاكرتنا فوضى، فوضى حارقة، وعيُنا غارق في الألم، ألم المعدة، ولم يعد لدينا ألم غيره، حالة من التبلد اللا إرادي، لماذا أفكر واستدعي ذكائي ما دام طريقي معروف، لا عمل إلا لكل صاحب ولاء، ولا عمل إلا للأسر الكبيرة، ولا عمل إلا لمن سيتنازل عن كرامته وكبريائه، ولا عمل إلا بالمحسوبيات، ولا عمل لمن لديه كفاءة؛ لمن لديه ذكاء؛ لمن لديه قدرة، نحن مجتمع اللا قدرة، أصبحنا مجموعة من الأفاقين والأفاكين والظالمين والمستضعفين.

هل اليابان دولة غبية لتنشئ وزارة للذكاء؟ هؤلاء الذين احتلوا العالم بمعجزاتهم.

ما هذه الأبحاث العلمية التافهة التي لا تستحق؟ ما هذه المقالات العلمية التي تنشر في دوريات لا تستحق أن تقرأ؟ ما هذا الولد الذي يريد الحصول على الدرجة العلمية من أجل أن يترقي ماديًا أو يحصل على درجة وتصبح حياته كلها مرتبطة بها؟ ما هذه الأم التي تريد من المدرس حشو دماغ الولد بكل المعلومات ليكون في النهاية قطعة في

أسطوانة مشروخة؟ ما هذا الأب الذي يشتري لابنه الشهادة؟ ما هذا الرجل العربي الذي أتى للقاهرة للحصول على درجة علمية من ذوي نفوس ضعيفة؟ ما هذا السائق الذي يجلس على المقهى وينتظر أن يقذفه الله بمئات الجنيهات دون أن يتحرك؟ ما هذه المسابقات في التليفون المحمول التي تمتلئ بالكذب والنهب؟ وما هؤلاء الآلاف الذين يتسابقون للاشتراك فيها من أجل الحصول على سيارة أو مبلغ من المال لا يأتي أبدًا؟

نحن نرسخ بشكل جدي لغبائنا، ولا أستطيع أن ألوم سوى أول من بدأ بذلك، هل ألوم الثورة التي زجت برأس مصر وعقلها وإرادتها في السجون؟ وهل هذا فعلاً حقيقة؟

هذا السؤال وقف أمامه الكثيرون، لكن مَن هم الذين ألقتْ الثورة بهم في المعتقلات والسجون؟

هم كل من أراد أن يعيق مسيرتها دون أن يدري ما الذي تقوم بفعله؟ كنا نحتاج إلى مسيرة واحدة، ففي زمن سبق الثورة كثرت المسيرات ولم تنجح مسيرة واحدة في إنقاذ الوطن ومجموع المستضعفين، ولم تهتم بهم من الأصل، حتى أتت الثورة وحتى أتى عبد الناصر، لم يدرك المثقفون حقيقة الثورة، كانوا يريدون العودة بها إلى أيام الملكية فوقف لهم بالمرصاد، كان كل ما يحدث في الملكية من أحزاب ومجلس شيوخ

وأمة، عبث... عبث كامل، وعلى ذلك يجب أن يخرج (عبد الناصر) من دائرة اللوم، فما فعله كان يصلح للوقت الذي بدأت فيه الثورة، لا يصلح لما بعدها، وهنا بدأ التغيير، فهل فعلا تغيرنا، وضعنا يافطات كتبنا عليها أسماء الأحزاب والصحف وهانحن ننهش في أنفسنا جميعًا، نسينا أن التغيير المطلوب كان لابد أن يكون على مستوى الفرد، على مستوى تغيير العقلية الفردية لتمتلئ بالذكاء والثقافة فتعطي.

ما الذي حدث بعد ذلك؟ هل ألوم الحكام الذين استمروا على نفس المنوال؟ هل ألوم أنفسنا لأننا ارتضينا ذلك؟ هل ألوم نظام العبيد في التعيين من أول عمدة القرية للوزير للغفير للمدرس للموظف لمهندس الحي الذي لا يستغل علمه سوى في الرشوة وتشويه عمارة البلد؛ التي كانت يومًا جميلة؟ هذه العمارة التي يقول عنها (شوبنهاور): "العمارة الجميلة تشبه الموسيقي المتجمدة".

المشكلة أيضًا في جوهرها أنه ليس مطلوبًا من الذكاء أن يُشارك في معركة التحضر، فالقاتل الاجتماعي المتسلسل لا يريد ذكاءك، وأقسم بالله لا يريد ذاكرتك أيضًا، ولأنك فقدت أعز قيمة لدى الإنسان ألا وهي الذكاء،فهل نعلن بعد ذلك موت الذكاء أيضًا ونسير في جنازته؟

مَنْ حرق ذكاء مصر وإبداعها من الطفل إلى الفنان والعالم العبقري؟ لا تتطلع حولك، فقد شاركتَ أنتَ أيضًا في ذلك بشكل أو بآخر.

(٥)

الثأر.. فوضى العقل وعقل الفوضى

سألتُ صديقي: ما هو أجمل شيء في مصر حاليًا؟

تطلع إليّ بعينين غارقتين في أسى مخيف وسكتْ.

وعدتُ أفكر ما الذي حدث خلال النصف قرن الماضي ليجعل الحياة في مصر بكل هذه الفوضى؟ لقد وصلنا بالفوضى إلى حدود التطرف، أقصى حدود التطرف، انظر إلى الشارع، ستجد كرنفالاً من الثياب، المتبرجات والمحجبات والمنقبات، أصحاب السراويل الضيقة المستفزة وأصحاب اللحى، الجلابيب القصيرة والقمصان الملونة، العمارات الشاهقة والبيوت القصيرة السوداء اللون،الجراجات المغلقة والسيارات التي تقف صفوفًا طويلة، جنود المرور – الذين يصعبوا على الكافر – بملابسهم المتربة ولحاهم، الميكروباصات ذات الألوان، الدخان الأسود الذي يخرج منها ومن أتوبيسات النقل العام، الباعة المتجولون، الشحاذين، عربات حكومية يطل منها رؤوس كلاب ورؤوس أطفال عائدين من نزهة مسائية أو صباحية، طابور مدرسة

صباحي تحول إلى مأتم للوطن، أولاد يتسكعون يشربون السجائر والمخدرات، زحام هنا وهناك، أرصفة مكسرة، مطبات لا قانون يحكمها، مياه آسنة متجمعة في الأركان، سحابات سوداء تغطي رؤوس الجميع، زعيق هنا وهناك، عرقٍ وسخام ووجوه صفراء مريضة شاحبة... هل هذا هو الوطن؟!

أتطلع إلى صورة بالأبيض والأسود قديمة على الحائط لجدي وجدك، صحته تكاد تنطق في الصورة، شوارب عريضة، وابتسامة رائقة جدية... أين ذهب كل ذلك؟ ما الذي شوه الوجوه والشارع والحي والمدرسة والسيارة والمستشفى والمسجد والكنيسة؟ ما الذي شوه علاقات المسلمين بالأقباط؟ ما الذي قتل الأحزاب؟ ومن الذي أودعهم السجون؟ ما هو هدف أي منا حين يخرج في الصباح؟ العمل أم قتل وقت الفراغ؟ أو مسلسل الخناق اليومي مع الجار؟ حتى الرئيس في العمل الذي لا يعرف معنىً للعمل في مصلحة حكومية.

تراكمات من الفوضى، هل كان العقل المصري فوضويًا من قبل؟ وإذا لم يكن فمن أين أتت هذه الفوضى؟ هل ورثنا الفوضى؟ إذا كان ذلك فمن أين أتت هذه التماثيل الخلابة الجميلة والأهرامات التي يتحاكى بها العالم؟

احترتُ كثيرًا في من أتهم، أتهم النظام بأنه خلق اللا نظام؟ بأنه أعطى المسؤولية لمن لا يستحق؟ بأنّ الحكم والإدارة هبات يمنحها من لا يستحق لمن لا يستحق؟ ما معنى الاشتراكية التي ينص عليها الدستور في بلد لا يفهم معنى الاشتراكية ولم يستطع تنفيذها لا على الورق ولا في الواقع؟ ما معنى الإسلام والتكافل الاجتماعي إذا كنا لا نطبقه؟ ما معنى التسامح في المسيحية إذا كنا لا نعرفها؟ ما معنى المدرسة إذا كانت تخلق طفلاً فوضويًا؟ ما معنى المدرس إذا كان ينشل جيوب الآباء ويزرع في العقول صورة ذهنية لمعنى الجشع والأنانية وفقدان الأهلية؟ ما معنى المحامي إذا كان لصًا؟ ما معنى المهندس وهو يوافق على إغلاق الجراج ويبني الجسر الخطأ ويبني الأرصفة الخطأ، وهو يضع الإسفلت الخطأ، وهو يبني البيت الخطأ، وهو يستحل أن يأكل حرامًا؟ ما معنى الطبيب الذي يقتل مرضاه بعد أن يحصل على أمواله منهم؟ ما معنى الضابط إذا تاجر في المخدرات والميكروباصات وفي مساجين السجن والمعتقلين؟ ما معنى الكاتب والمفكر – وضع تحت المفكر ألف خط – إذا كان يهين ذكاءه وذكائنا ليدافع عن باطل؟ ما معنى رئيس الجريدة الذي يستحل دم صحفييه ويأكل من بطونهم؟ ما معنى النظام إذا كان التعيين هو القدر لكل صاحب مسؤولية؟ أليس هذا هو مجتمع الفوضى؟ فوضى العقل الذي كرس مفهوم عقل الفوضى في النهاية.

تتراكب وتتوالد الصور الذهنية المغلوطة لتشكل عقلاً لا يعرف معنى النظام، فيولد مجتمع اللا نظام، وهذا المجتمع بطبيعته سوف يقوم بتصفية نفسه مع الوقت، فمن سيبقى في النهاية سوى بعض الرموز التي ستحكم شعبًا ميتًا، هل يستحق هذا الشعب الذي عاش في الوادي عشرات الآلاف من السنين أن يحدث له ذلك؟ هل هُنَّا على أنفسنا لنقتل أنفسنا بأنفسنا ونحن نمارس الفوضى في كل لحظة، ولصالح من هذه الفوضى، وهذه العبثية المتطرفة والمفرطة؟

هل أعود لمحاكمة النظام، ولمحاكمة لحظة الحرية؟ هل نتجت الفوضى المفرطة عن حرية مفرطة؟ ولماذا لم يحدث ذلك في الغرب؟ لأن الغرب نال حرية حقيقية، أما نحن فقد نلنا حرية فرد واحد وشعب مسجون داخل أماني ووعود بتحقيق الأماني ذات يوم، هل نحن شعب فقدنا ذكاءنا لنصدق أي وعود كانت تقطع علينا منذ أكثر من خمسين عامًا، النكسة كانت حالة فوضى، وانهيار التعليم والمياه والصحة والثقافة والشارع والإنسان حالة فوضى.

سأطلب منك أن تدخل في عقل أي طفل مصري الآن، أو امرأة أو رجل، اكتشف بنفسك حالات الفوضى الفردية، عقول تنتهبها

الهواجس والوساوس والكآبة والأرق والحزن والمرض، عقول لا تستريح، تريد أن تضحك على أي شيء ولأي شيء، لأنها ماتت كمدًا لسنوات طويلة، اللسان مقيد والعقل مقيد والإرادة مقيدة والإحساس مقيد، فماذا تنتظر يا سيدي منهم؟

إن أول طريقة للتصحيح هي فتح الجروح ثم إلقاء الملح فيها، فهل سنتحمل ونحن نمارس الفوضى ليلا نهارًا، لا حسيب ولا رقيب ولا قانون ولا شيء جميل يستحق أن نقف أمامه، ولماذا نقف ونحن نسير بسرعة ونأكل بسرعة ونشرب بسرعة ونمارس الجنس بسرعة ونتعبد بسرعة، دون أن ننظر خلفنا أو حتى أمامنا، نحن نسير كالحصان، الحصان الأعمى، الذي يمكن أن يَقتل في لحظة، كما يمكن أن يُقتل في لحظة.

كم خرقنا من القوانين، الحكومة أول من يخرق كل قانون، الحكومة هي المثال والقدوة، الرئيس والوزير والمحافظ والمدير والضابط كلهم يخرقون القوانين، كلهم يعودون بنا إلى عصر اللا قانون، فلماذا نحتفظ نحن بقانون لحكومة تصرف خارج الميزانية أكثر من ثلثها، ميزانية دولة بأكملها تصرف الثلث على أشياء لم يرد ذكرها بالميزانية فكيف نأتمنها على أرواحنا؟ نحافظ على القطاع العام أو لا؟ نبيعه برخص

التراب، نبيع مياه النهر أم لا؟ أسئلة إستراتيجية لدولة لا تعلم ما هي إستراتيجيتها، فأصبح كل ما تفعله ردود أفعال أو أوامر من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وعائلة الدولي كلها.

الإنسان يرتكب الفوضى لأنه فقد الأمن، يحتمي بالقبيلة أو بالمجموع أو بقربه من منفذ النظام، وحين تصبح المؤسسة التشريعية رقم اثنين أو ثلاثة والمؤسسة التنفيذية هي رقم واحد في الدولة فكيف نصنف هذه الدولة؟ نحن خرجنا من التصنيف، دولة لا يمكن تصنيفها الآن بسبب حالة الفوضى واللا نظام، فرغم كل ما نملكه، كنا نبني الكباري بأقل القليل، فأتت مشوهة لا تتحمل، وأردنا حل أزمة المواصلات فخلقنا ألف أزمة من ميكروباصات مشوهة بالكوم وتاكسيات مشوهة أيضًا، إن هناك من ألقى فوق وجهها هي الأخرى ماء النار، وشركات شرهة للحم الحي المصري أوسعت فيه قتلاً وتنكيلاً، كوارث يومية للعبارات والقطارات والأتوبيسات والجرارات والميكروباصات، قتلاها بالمئات والآلاف.

أردنا حل أزمة المستشفيات فأصبح لدينا آلاف المرضى الذين لا يجدون علاجًا، وأردنا إصلاح التعليم فشوهنا منظومة التعليم.

المشكلة أن إرادتنا لم تكن خالصة وكلية للحل، كنا نحل بشكل جزئي فزاد التشويه وزادت الفوضى.

وبعد كل ذلك يجب أن أسألك كيف تعيد هذا المجتمع إلى حالة النظام؟ هل علينا أن نعيد قراءة نصوص القانون الفرنسي وغيره؟ شوهنا القانون، وأصبح من يحكم أبو القانون وفوق القانون وأم القانون، فلماذا نتعب دماغنا ونوجعها بهذا الكلام الفارغ؟ أصل الداء معروف، لكن الدواء غير معروف، وأتحدى جهابذة صياغة القوانين في مصر أن يقوموا بتقديم حل شيطاني لهذه المسألة.

نحن أسوأ مليون مرة من العهد الملكي، وأسوأ مليون مرة من إسرائيل، وأسوأ مليون مرة من الشيطان نفسه، الشيطان نفسه لو أراد خلق هذه الفوضى العقلية لن يستطيع، لماذا؟ لأننا فقدنا الأمان في الآخر، فأصبحنا نواجه أنفسنا فقط، لقد خلقنا الأداة التي تقتلنا كل يوم، هذه الأداة تكبر كل يوم، وحش لم يعد من الممكن السيطرة عليه، لأن أذرعته أخطبوطية، ونحن ضعاف مشوشون فوضويون، وبعضنا لا يستحق مجرد الحياة.

أعود لهذا القاتل الاجتماعي التسلسلي الشره، إن ازدحام العقل بالفوضى جعلته يعمل بسهولة، أصبح العقل المصري هو عقل الفوضى، العقل الذي يقبل كل الأمور بسهولة فهي مشوهة وهو لا يدرك تشويهها أو يدركه ويقبل به أو يراها لا تختلف عما هو جميل، مما سهّل من مهمة القاتل الاجتماعي، الذي ألد أعداؤه العقل المنظم،

القاتل الاجتماعي لا بد له من خلق الفوضى التي تصبح مع الوقت هي المبدأ الأول والأخير لأي عقل، تم توريث عقل الفوضى للإنسان المصري خلال عدة سنوات من الحروب والتنكيل السياسي والكذب السياسي والعهر السياسي ومتلازمة الفقر ومتلازمة السلطة، بدأنا حركة جماعية من الفوضى، من بحث عن الحلول الفردية للهروب من الأزمات الخانقة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، ومع الوقت استمرأ العقل الحلول الفردية بسبب الضغوط القاتلة المتوالية من كل الاتجاهات، وهنا ترسخ عقل الفوضى، وأصبحت مهمة القاتل الاجتماعي سهلة ويسيرة، أصبحت البيئة التي يعمل فيها هذا القاتل المجنون زاهرة، يعمل دون أن ينتقده أحد، لأن ما يفعله يتفق مع كل مضامين الفوضى التي يعيشها العقل المصري منذ عقود، عقل أخذ في الانهيار على ذاته لعقود طويلة ما الذي يمكن أن نطلبه منه الآن؟

علينا أن نحمد المولى أننا مازلنا واقفون على أقدامنا، ولكن دون عقول أو بعقول ثأرية أو بعقول تمجد الفوضى، أو بعقول انسحابية وخائفة أو بعقول لا ترى الضوء، ولم تعد تميز بين القبيح والحسن، تريد أن تعيش وكفى، إذا كنت ألوم العصر الملكي على عشرات الخطايا التي ارتكبها في حق المصريين، فلأن مرتكبو هذه الخطايا كانوا غير مصريين أما ما الذي يمكن أن أقوله عن خطايا العصر الجمهوري منذ الثورة حتى الآن، فإنني أتركه لكم لتفكروا فيه على نار هادئة.

(٦)

تحقير الذات .. ثأر الذات الحقيرة

نتسلق الطريق إلى العدمية رويدًا رويدًا، وواحدة من معالم هذا الطريق هي تحقير الذات حتى الثمالة، كأننا وضعنا كؤوس المهانة والذل والاستذلال والاستضعاف وأفرغناها في جوفنا غير نادمين، كأننا وُلدنا دون إحساس داخلي بمعنى الرجولة، كأننا مجموعة من الخانعين والمطايا لأصحاب المال والسلطان والجاه والقوة والعنف.

لأننا فقدنا القدرة على أن نأكل من عرق جبيننا وتحولنا إلى الأكل من عرق جبين الآخرين الشاذين جنسيًا، وبالتالي تفتت جميع الصور الذهنية التي بُنيت في الماضي عن الإنسان في المحروسة، فهل نحن كذلك فعلاً؟ وهل فقدنا القدرة على الإحساس إلى هذا الحد؟ الحد الذي أوصلنا إلى تحقير الذات بمناسبة وبدون مناسبة، فقراء أو أغنياء، أقوياء أو ضعفاء، أصحاء أو مرضى.

وبعد تحقير الذات لسنوات، ظهرت الذات الحقيرة كسلوك مكتسب أخذ في التطور مع الوقت نتيجة تحقير الذات المستمر، الذات التي

تقتل وتصلي، تكذب وتدمع، تمتلئ بالحنان وتتذلل في ميوعة، حالة غريبة حين تجد أمامك مثل هذا النوع من الإنسان، الذي يأتي من بعيد على هيئة فيل، وحين تسمعه تتأكد أنك تستمع إلى نملة، حتى النملة أشرف منه ألف مرة. وصلتْ الذات الحقيرة إلى أقصى حدود المؤامرة فهي تبيعك وتبيع آبائك وجدودك وتبيع نفسها فوق البيعة، ما الذي أوصلنا إلى ذلك؟

الديكتاتورية،المساعدات الخارجية،تزايد الهوة بين الطبقات،الإحساس بالدونية، المرض، هل نخشى التخلص منهم إلى الدرجة الذي أصبحت معها هذه المركبات جزءًا من صورتنا في المرآة والصورة الضوئية، وفي كل ما يعكس صورنا؟

كنتُ في أحد فنادق النجوم الخمسة، على ميعاد مع ذي شأن من دولةٍ ما، جلسنا نتحدث لدقائق، ثم دخل دكتور مصري لامع الوجه أحمر البشرة لزج الشعر، أقبل على أحد الخليجيين فقبل يده وقال له يا مولانا، ثم رأيت فجأة قرنين سريعين يكبران في قمة رأسه بسرعة عظيمة، وحين علمتُ باسمه اكتشفت أنني أمام أحد الأساتذة في كلية قانون معروفة، اسمه (كالطبل) في كل الصحف.

تذكرتُ ما كان يفعله بعض الأساتذة في مدارس الخليج وجامعاتها، ثم تذكرتُ ما يفعله المدرسون في المدارس الخاصة المصرية الآن، ثم تذكرتُ ما يفعله بعض أساتذة الجامعة في زملائهم لدى عمداء الكليات ورؤساء الجامعات، وتذكرت ما يفعله هؤلاء مع ضباط الشرطة، واكتشفتُ أن حقارة الذات وصلت إلى درجة ميوعة كلمة (باشا) بين المسؤولين عن أمن الشارع والمواطن.

بالله عليك كيف تأتمن روحك مع السيد (الباشا)؟ وهل يحمي الباشا من هم أدنى منهم مرتبة؟ ثم لماذا نتحدث عن أنفسنا بشكل مباشر أو غير مباشر فنسيء إلى شعبنا ووطننا وديننا وأخلاقنا وميراثنا التاريخي كله؟ نحن من كان يحكم العالم ذات يوم، وإذا كنتُ قد رددت هذه العبارة في بعض الصفحات فأنا أرتكز على حقيقة عالمية، امتزجت بحقيقة التسول والدخول السرطانية والفساد والدخان الأسود وابتذال الذات في النهاية.

حرية الكلام والابتذال وتحقير الذات مكفولة للمواطن المصري العبيط والأهبل والساذج، ما رأيكم في الدور الذي نمارسه الآن في الساحة الدولية؟ دور الوسيط أم دور العبيط؟ فلنستمر في إهانة اسم (مصر) وتاريخنا كله، فقد أصبحنا من أبناء الذات الحقيرة.

كيف انتقلنا إلى هذه الحالة؟ ومتى كانتْ؟ في العهد الملكي أم الجمهوري؟ لو كان الفلاح المصري يفعل ذلك منذ آلاف السنين لكنّا شعبًا بلا هوية، شعبًا حقيرًا ليس له لون ولا طعم ولا رائحة، لكننا من المؤكد بدأنا نفعل ذلك مع ازدياد الفقر والهوان ووطأة كتم العقل واللسان وتشويه الشخصية، ولا يمكن أن يحدث ذلك دون مركبات نقص عضوية مستمدة من السلطة وعجزها عن مواجهة الفقر والمرض نحن لا نؤمن بأنفسنا أو بما لدينا، فكل صاحب جاه يعالج في الخارج وكل من وصل صوته إلى السلطان – في ساعة رضا – يمكنه أن يُعالج في الخارج، ولكن ماذا عن آلاف المرضى المحرومين؟ مرضى بلا قيمة وبلا هوية، ولا معنى لأصواتهم مهما علت، نحن مواطنون بلا قيمة وبلا وزن، وانسحبت مضامين انعدام القيمة وموت الوزن على كل شيء في الوطن، فأصبحنا مواطنين بلا وطن، وأصبح الوطن بلا مواطنين، ولم توحدنا عذاباتنا لأننا أصبحنا نبحث عن الحلول بشكل فردي، وحين انتهت روح المجموعة وقفزت روح الفرد فقدنا روح الوطن، ولم يعد الوطن وطننا، أصبح وطن القافزين بالباراشوتات من السماء، أصبح وطن مريض سقيم عليل فاقد الرغبة في الحياة.

ما رأيكم في مسألة استفحال أنفلونزا الطيور خلال عدة أسابيع؟ وما هذه الاكتشافات الفجائية والسريعة يومًا بعد آخر؟

وطن مريض وسلطة مريضة ورجال سلطة مرضى ومواطنون مرضى، هل أصبح الوطن مرحاضًا عامًا لكل صاحب قوة أو جاه أو سلطان؟ هل أصبح الوطن رذيلة وامرأة ساقطة؟ هل أصبح الوطن بلا وطن؟ بعد أن هُنّا على أنفسنا إلى هذه الدرجة، لماذا يخاف صاحب المال في الخليج على ماله لهذه الدرجة؟ ولماذا يبتذل نفسه إلى هذه الدرجة؟ وماذا يريد بعد ما لديه من خوف الفقر وذريعة المستقبل وغائية الغد المظلم؟ والغريب أن الله لا يتركهم يهنأون بمالهم وما جمعوه.

ما الذي لوّث أبناء الوطن؟ ومن الذي باع الوطن؟ ومن الذي اشترى الوطن بأبخس الأثمان وأنجسها وجعله عليلاً بلا أمل في الشفاء؟
ما حالة السكون التي عليها هذه الأرض الخرساء التي نعيش فوقها، فلم تعد تمنحنا أمانًا ولم تعد تمنحنا شعورًا بالوطن؟
كأن الوطن كلمة في نشيد يردده ببغاوات بمساعدة ببغاوات أمام مجموعة من الببغاوات الأغبياء ليسمعه كل صاحب ذات حقيرة، فتخرج من الأذن الأخرى غير مأسوف عليها، ثم نسأل بعد ذلك عن (ما تقولش إيه اديتنا مصر)، عن أي مصر يتحدثون.

مشاهد الماضي تتكرر،ما كان لدى الآخرين في أوروبا فيما بعد العصور الوسطي يتكرر هنا بشكل أو بآخر، خائن آخر مثل القسيس (فلنر)

الذي كان يتظاهر بالورع والتقوى أيام (فردريك) الكبير حاكم (بروسيا)، والذي تقلد وزارة المعارف في عهد (فردريك وليام الثاني)، بعد أن وعد بتقديم نفسه كأداة طيعة في تطبيق سياسة العاهل الجديد الذي أراد استرداد العقيدة الدينية بقوة، فأصدر قوانين تحرم تعليم ما لا يتفق مع التعاليم البروتستانية ونص رقابة على وسائل النشر، وأمر بطرد كل مدرس مشبوه بالإلحاد أو الزندقة، أليس هذا ما يحدث الآن بشكل أو بآخر؟ ألا ننظر في مرآة التاريخ أبدًا؟ يزداد عدد ضباع السلطة الملتفون حول مائدة السلطان – أيًا كان السلطان فقد عرفناه من قبل – ضباع شرهة ونهمة ذاتَ ذاتٍ حقيرة، تُمارس استلاب الشخصية والروح وبقية العزة وثمالة الكرامة حتى لا يتبقى شيء في مائدة الروح لدى الناس فيتحولون إلى هياكل خربة، تمارس لعبة تحقير الذات بمبرر وبدون مبرر خوفًا من مزيد من التشويه.

المشكلة الحقيقية والمتأصلة كون هذه الذات بعد أن تشبع، تظل تمارس حالة التحقير، كأنه لم يعد لديها لعبة غيرها لتستطيع أن تعيش، ولكنها في النهاية حياة الفئران في البالوعات ومواسير المجاري، أي حياة حقيرة ارتضينا، ولماذا وصلنا إلى هذه الحالة المزرية؟

المصيبة الأكبر أننا نخشى مثل هذه الاعترافات أمام الآخرين الذين يتندرون علينا بضحكاتهم وهمساتهم وهباتهم وأوامرهم وصبيانهم وكلابهم وحريمهم وجواريهم.

نحن أبناء الشمس والنيل وأحمس ورمسيس ومحمد وعيسي والثوار القدامى، ماذا فعلنا بأسمائهم وماذا فعلنا بأنفسنا؟ كيف نتخلص من أصحاب الذوات الحقيرة؟ وكيف نطهر نفوسنا من آثار تحقير الذات؟ أسئلة كبيرة ليس لدى أو لدينا إجابات عليها.

أسوأ ما في التفكير؛ الأسئلة، والأجمل هو الأسئلة أيضًا، العيون تمتلئ بالأسئلة، والإجابات أضغاث أحلام وتكرار لأوهام القدرة على الفعل والحركة، أتطلع حولي فلا أجد سوى أطفال صغار نعدّهم بشكل أو بآخر لهذا المصير الأسود الذي لم نستطع النجاة منه، فكيف يصدق السلطان أننا نحب هذا الوطن رغم كل ما فيه، ونحن سعداء بالموت فيه وله، ولكن فقط ونحن رجال.

مرة أخرى يقفز القاتل الاجتماعي التسلسلي غير المباشر إلى الصورة، فلا يمكن التغلب عليه بإحساس من حقارة الذات، لقد أوصلنا هذا القاتل الهلامي المتسرب في كل الأمكنة في هذا الزمان إلى حالة الذات

الحقيرة، أيضًا جزء من البيئة المستلبة التي تمكنه من العمل بسرعة وبسهولة في اجتثاث الأرواح.

المدهش أننا في النهاية القاتل والمقتول، فنحن نعمل بسرعة لصالح القاتل كي يتم فعلته فينا في النهاية فنستريح.

والمعضلة أننا لن نستريح بل سيزيد هواننا، إنه يمثل بصورنا وعقولنا في كل ميدان وفي كل صورة.

(٧)

العقل والجسد والصوت.. الانسحاب الأخير

سألني صديقي: ما رأيك في حالة الانسحاب التي نعيشها؟

سألته: أي انسحاب تقصد؟ انسحاب في حرب ماضية؟ أم انسحاب العقل من المشاركة في المعارك الضارية الناشبة في الصدور؟ أم انسحاب الجسد واختيار الظل البعيد للراحة؟ أم انسحاب الصوت الثوري الذي قتلناه؟ أي انسحاب من هؤلاء تعني؟

ابتسم وأشاح لي بيده، كأنه يقول لي، كل ذلك يا صديقي، انسحاب من المسؤولية، الحركة حالة وشاية لكي ينسحب آخرون أو يُسحبوا إلى مجاهل المعتقلات، وتغييب العقل بالمخدرات والنساء واللا معقول أنشطر يا صديقي إلى نصفين ينسحب نصف، ويتحول نصف إلى رماد ودموع تتبرز فوقه الكلاب والضباع.

هذا هو ما يحدث الآن، الجميع يفضل الصمت، أما من يتكلم فنحن ننتظر مصيره القريب، سجن أو معتقل أو موت فجائي.

كيف لا ننسحب من المصير؟

كيف لا ننسحب من معركة ليست معركتنا؟

كيف لا ننسحب من مدارسنا وجامعاتنا ومستشفياتنا ومؤسساتنا؟

كيف لا ننسحب ونتحول إلى قطيع الخراف والأرانب؟ نرتعد دائمًا ونتحول بأقدامنا عائدين للخلف وعيوننا مظلمة في الأمام؟

كيف لا ننسحب أمام فتاوى ممكن أن تسلم برقابنا إلى حبل السلطان؟

كيف لا ننسحب من برامج حكومية ليست لديها القدرة على الفعل؟

كيف لا ننسحب من جامعة لا تمارس سوى دور الذاكرة المشوهة؟

كيف لا ننسحب أمام حالات الثأر التسلسلية؟.

هل نحن مصابون بالفصام لنثأر وننسحب ثم نقيم عالم الفوضى؟ نحن مصابون بجميع العاهات والتشوهات النفسية والعضوية، نحن مغيبون بإرادتنا، لأن إرادة الآخرين فاقت كل شيء، فقدنا الإحساس فننتكس إلى الوراء في ارتياب خوفًا من أن يضيع العمر دون أن نسمع أو نرى، نتحول إلى الخلف فقط، فإذا سمعنا كل شيء ورأينا كل شيء فنحن في النهاية نفضل الانسحاب فقط، كان لنا انتفاضة أخيرة في العصر الجمهوري، حدثت في غفلة في الزمن، ثم بدأنا بعد ذلك ننسحب إلى الوراء دائمًا، نفقد القدرة والأرض والضمير والإحساس

فلا القانون موجود ولا الأمان موجود، نشبه في ذلك معركة الرجل مع المرأة – مع الاعتذار للتشبيه – إنه يكسب معركته الأولى فقط، ثم يخسر كل معاركه وحروبه في النهاية، فينسحب، ويتحول إلى كائن إلى لا إحساس فيه ولا إرادة ولا حركة.

متى نُفضل الانسحاب؟ الانسحاب لم يعد رفاهية بل قدر ومكتوب، الإرادة التي نمتلكها هي إرادة قانون القصور الذاتي، فنحن لا إرادة لنا في الحقيقة، فهناك إرادة أعلى هي التي تحركنا وتوجهنا، نحن ننسحب إلى زمن الجهالة والجمود حتى رد الفعل لم نعد قادرين عليه، كأننا أصبحنا جسدًا مائيًا يمتص الأفعال ولا يصدر أي ردود للأفعال، نغلي كالقدر على النار ثم نسكن في اللحظة التالية، نفضل التهدئة والهدنة والصمت والتعالي – واخد بالك من مسألة التعالي – وأخيرًا وليس آخرًا التغابي والانسحاب.

هل كان الانسحاب هو الحركة الأخيرة؟ لا يمكن لبلد دخل سجونه ومعتقلاته آلاف من أبنائه الأوفياء المتمردين أن لا ينسحب، ولا يمكن لبلد دخل عشرات المعارك الخاسرة أن لا ينسحب، ولا يمكن لبلد يطأه الكبير والصغير الآن أن لا ينسحب، ولا يمكن لبلد ما زال

يستخدم التمائم والتعاويذ أن لا ينسحب، ولا يمكن لبلد أكل بعض أغنيائه وأذكيائه لحم فقرائه وأغبيائه أن لا ينسحب، ولا يمكن لبلد لا يُسمع فيه سوى الصوت الواحد أن لا ينسحب.

انظروا إلى آلة العود في الموسيقي العربية القديمة، كانت موسيقي الصوت الواحد، وكنا نعترف بذلك، طورنا الموسيقى فشوهناها، لأن خليتنا خلية الصوت الواحد المسيطر المتفرد المبدع السلطان.

أجلس على النيل منسجمًا، فيأتي شرطي ليراقبني عن بعد فأنسحب إلى ركن قصي بعيد فأجد آخر غيره، أركب سيارتي لأجد بعض حاملي الأكتاف الذهبية أو الملونة يتطلعون إليّ فأنسحب، أجلس على المقهى، فأجد مخبرًا فأنسحب، وسواء كان ذلك حقيقيًا أم متخيلاً فأنا لا أملك سوى الانسحاب، والانسحاب فقط، لأنني فقدت القدرة والإرادة على القتال وخوض المعارك، فقدتهما منذ زمن طويل، يوم قبلت الرشوة والفساد والمحسوبية والنطاعة والبلادة، أنا لا أخص أحدًا مّنا، بل كلنا، مِن الحقير إلى السلطان سيد القوم.

أتطلع في وجوه الطلبة والطالبات أمامي، على صغر العمر؛ حالة من الانسحاب والخوف المستشري في العقول والأجساد والأصوات،

صوت خافت خائف يرتعد، ورأس مطأطئة للأسفل وعين زائغة، من فعل بهم ذلك؟ أين ذهب التمرد؟ التمرد هو دم الثورة العلمية والعقلية، عجبًا لبلد وضعتْ ضابطًا وعسكريًا على كل مدخل، وعربات مصفحة للأمن المركزي أمام كل جامعة ومعهد ومسرح وسينما، كيف تُنادون بالثقافة والتطور العلمي والفني وأنتم تخلقون روح الخوف والانكسار، ومع استمرار هذه الروح يولد الانسحاب.

من قتل إرادة الحركة في أبناء وطني؟ بعض من أبناء وطني؛ بعض من محظيات السلطان، بعض من خصيان السلطان، بعض من أنذال السلطان، والغريب أن كلهم من أبناء وطني.

أُصاب بالغثيان حين أجد دولاً عربية تدافع عن حقوق الإنسان لدينا، ألهذه الدرجة استشرى الهوان؛هوان المحكوم على الحاكم،هوان المظلوم على الظالم، هوان الإنسان في وطني؟

ولكننا من ارتضينا ذلك لأنفسنا، أعطينا السلطان ما لنا، وهبنا السلطان كل ما لديه، وحرمنا أنفسنا من حق الحياة الكريمة، بيدنا لا بيد السلطان حدث انسحابنا وهواننا، أليس كلنا مصريون، ألسنا كلنا أبناء هذه الأرض؟ لماذا نحترق نحن فقط؟ ولماذا نموت نحن فقط؟ ولماذا ننسحب نحن فقط؟ هل أنا مخطئ؟ نعم... ألا يموت السلطان

أمام السلاطين الأقوى؟ ويحترق أمام الأقوى؟ وينسحب ويتخاذل أمام الأقوى؟ فيمارس حالاته علينا، أصبح أكبر لاعب في ملاعب الوطن، مخطئ أنا أيضًا، فهناك لاعبون أكبر اسمهم السفارات الأجنبية، أو هؤلاء الذين يمدون بأيديهم إلى أفواهنا، أصبحنا فوهات فقط، تعيش لتأكل، وتلقي خلف ظهورها بكل شيء نبيل، نحن من كنا نبلاء العالم وسلطانه، أصبحنا خادم العالم، الخادم الكسول اللاهي الضعيف الذي سقطت منه ذاكرته وأُعدم أيضًا ذكاؤه.
وحين تكون مريضًا بكل تلك الأمراض من الكسل العقلي واللا مبالاة والجوع والخوف والضغط والسكر والكبد والكلي والسرطان والأمراض العصبية المتفشية؛ عليك أن تختار الانسحاب، أو يختارك الانسحاب، لا فرق، فأنت في الحالتين لا وجود لك ولا فعل لك ولا عقل لك ولا جسد، وحتى الصوت تم اغتياله.

من الذي عبث بحياتنا؟ مصريون وخونة، ومن الذي عبث بثقافتنا؟ مصريون وخونة، ومن الذي عبث بعقولنا وأجسادنا؟ كلهم مصريون وخونة، ماذا فعل المصريون بالمصريين؟ تبقى تلك المقولة الجميلة لرجل أمين في وطن ضحى بكل ما فيه.

الانسحاب حالة من الغباء اللا إرادي، يتناقض مع الثأر التسلسلي، لكنهما مربعان مكملان لرقعة الشطرنج القذرة التي نعيش فوقها الآن، حالة لم يعد فيها الرجل رجلاً ولا المرأة امرأة ولا الطفل طفلاً ولا الطعام طعامًا ولا الفن فنًا ولا الثقافة ثقافة ولا الوطن وطنًا.

إن جام غضبنا نصّبُه أولاً فوق رؤوسنا، وإذا كنا تحولنا إلى زمن الفعل الفردي المسلوب، فإن الفعل الفردي الإرادي هو الذي سيعيدنا من حالة الانسحاب، وإذا استمر الأمر على ما هو عليه فإننا كما يقول (فولتير) سنرث العالم كما وجدناه في سخافته وشره وفساده، ولكننا أيضًا سنكون أكثر سخافة وشرًا وفسادًا، انسحابنا هو هذه المقولات الثلاث، انسحابنا ترسيخ وتأكيد على موت الحرية، وترسيخ لمبدأ فساد الروح.

كنا روح العالم وأسطورته، فكيف رضينا أن نقف في الظل ونتفرج على من يدورون بيننا يصنعون من جماجمنا كؤوسًا للشراب ومن فتحات أجسادنا أماكن للرذيلة، نحن نستحق كل ما جرى ويجري وسيجري، لأننا تخلينا عن المجموع لصالح فرد، فرد واحد فقط لا غير، هذا هو الحساب الأخير.

ها هو القاتل التسلسلي الاجتماعي مرة أخرى يغرز بمخالبه وأسنانه فينا، فالجسد أصبح مريضًا وضعيفًا، وحريته في الحركة محدودة للغاية، أشك في أنه يستطيع القيام بها، كأن كل جزء في الجسد يأكل الجزء الآخر لصالح هذا القاتل اللعين، كأنك تنتظر أن يمر الليل عليك ويأتي الصباح فتجد نفسك بعضًا من مخالب وأنياب، أما الجسد فقد اختفى، مرّ عليك القاتل التسلسلي فلم يترك في جسدك سوى هاتين الإشارتين.

هل هذه حدوده النهائية، أم مازال لديه الأسوأ؟

(٨)

قانون الغابة .. قانون الأقوى

حين يسود قانون الأقوى يتحول المجتمع إلى غابة؛ غابة بشعة، في الماضي سادت قوانين القبيلة والعشيرة والأسرة، وكان من نتائجها تلك المحاباة التي يمكن أن تظهر في مساندة الأقرباء في التعيين والتوظيف والتوزيع في الجندية وفي الحصول على مكاسب مادية أو أدبية بأقل مجهود يذكر، لم نتخلص من ذلك منذ آلاف السنين ولم تؤثر الحضارة أو الثقافة كثيرًا في تغيير هذا السلوك المعوج، وكم طالعتنا الصحف بأخبار، ها هم أبناء أساتذة كلية الطب، وها هي تعيينات بعض القضاة، وها هم المديرون ورؤساء مجلس الإدارة، أصبح معيار الكفاءة للمرة الثانية مهضومًا مرة للتأكيد على سياسة الولاء والغباء، ومرة أخرى للنزعة القبلية التي لم تختف رغم العديد من الحضارات التي مرت علينا. كل ذلك يؤكد على متلازمة السلطة ورسوخها لدى الحاكم والمحكوم، ولأنهم أمنوا العقاب فقد سادت شريعة الغابة.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل تعداه إلى تطور قانون الأقوى، فابن الضبع الصغير الذي لا يستطيع قتل فأر حين يكون وحيدًا وبعيدًا، يمكنه أن ينكل بقطيع من البسطاء إذا شعر بأنه قريب من مراكز السلطة وبأن هناك من يحميه، يمكنه أن يقتل أي عابر في الطريق دون أن يطرف له جفن، يمكنه أن يسبّ من يريد ولا يخاف من عقاب.

ونظرة واحدة على أغلب أبناء المسؤولين أو أصحاب السلطان أيًا كان نوعه، ستثبت هذا السلوك الدموي والعدواني.

ما الذي أوصلنا إلى هذا؟ سلسلة الديكتاتورية وسيطرة رجال الأعمال، وعلاقة رجال الأعمال بالسياسيين، وضباط الشرطة ورجال قضاء ورؤساء مجالس إدارات، هل هذا هو المجتمع الذي قامت الثورة من أجله؟ إنه أسوأ مليون مرة من مجتمع الملكيّة، كأننا طردنا المستعمر الأجنبي اللعين لنأتي بمستعمر ألعن منه، هذا المستعمر من لحمنا ودمنا وصلبنا.

هل سعى المستعمر الأول نفسه إلى ذلك عملاً بنظرية المؤامرة؟ أعتقد جازمًا بأن هذا الرأي له وجه من الصواب والحقيقة، فقد ساعد المستعمر الأول من تولى أمرنا بعده على أن نلعن اليوم الذي خرج فيه المستعمر الأول، أليس هذا ما أراده المستعمر الأول؟ وها نحن نعترف

صاغرين بذلك الآن، فما الذي غيرناه؟ زيادة في غريزة حب القتل وتذوق دماء الفقراء والبسطاء، وحتى الفقير يمكنه أن يتلذذ بدماء من هو أفقر منه.

سلسلة لا متناهية من التغيرات، يمكن أن تعود لأسباب كثيرة ذكرتها من قبل، ولكن مَن ندينه، ومن يقف وراء كل ذلك؟ نظام فرعي لا يحافظ سوى على وجوده فقط ضمن سلسلة النظام الكلية، فيتصرف كل جزء في النظام بنفس الطريقة، كأنها خلية وراثية يعاد تشكيلها، كأنه قدر لن يتغير.

جميعنا يشكو من قانون الغاب، ولكننا نلتزم به جميعًا حين يأتي الدور علينا، يمكن أن تكون ضحية اليوم، وقاتل سفاك دماء غدًا، هذا هو لب قضيتنا جميعًا، هذا النوع من النقد غير موجه لشخص معين أو بذاته، إنما هو موجه إلينا جميعًا، نحن الداخلين في السلسلة والخارجين فيها، نحن الضحية والقاتل، نحن الضعيف والقوي، نحن الفقير والغني، نحن الابتداء والمنتهى.

ما الذي أدى بنا إلى قانون الغاب؟ الخوف من الفقر، متلازمة السلطة، حيث نكون قريبين منها في أي مرحلة من مراحل السلسلة فنحن نتصرف مثلها، هذا لب الأمر وجوهره كأننا لم نتعلم ولم نتثقف ولم

نعرف الرحمة أو التسامح أو الحنان، كأننا نختزن ذلك لأفراد محددين وليس لكل الناس، أبناء الوطن الذين يقعون في نهاية السلسلة حيث لا حائط خلفهم فيسقطون جميعًا من فوق الجرف غير مأسوف عليهم، لأنه لا قيمة لهم، سواء مات منهم خمسون أو ثلاثمائة أو ألف، فهم لا يساوون شيئًا، لأنهم بعيدون تمامًا عن أي حلقة من حلقات السلطة في السلسلة، إنهم واقعون في الفراغ والخواء والعدم في النهاية.
ترى كم من هؤلاء يعيش على أرض المحروسة؟ ملايين، أعداد لا متناهية من الخواء والعدم، الذين بلا قيمة في نظر الملتصقين بكل أشكال السلطة.

من أسوأ حوارات حياتي، ذلك الحوار الذي دار ذات يوم مع أحد رؤسائي، والذي تقلد منصبًا رفيعًا بعد ذلك بسنوات ففعل ما أراد، كان يسألني ماذا تفعل مع ابنك أو ابنتك إذا أردت أن تبحث عن عمل لهم؟ بعد لحظات من صمتي قال لي إنه لن يتورع شخصيًا عن رفد أي موظف من هؤلاء ووضعه أو وضعها مكانه، يجب أن أؤّمن لهم عيشهم وحياتهم.

هكذا إذن الأمر يجب أن تطأ قدمك جثث الضعفاء ذوي الكفاءة الذين ابتلاهم الله بوجودهم وخلقهم على أرض المحروسة فأصبحوا

مهانين مذعورين خائفين قانعين بكل ما يحدث لهم، وصلَ الأمر بعضنا إلى قبول الظلم والإفك بتسليم وخنوع، وهذا هو الوجه الآخر للمأساة.

كيف نفسر سلسلة السلطة، سلسلة الخنوع؟

احترتُ في تفسير هذا الأمر كثيرًا، لابد إذن للوجود من سالب وموجب حتى تكتمل الحياة، السلطة هي الفعل الموجب الذي يفرز تغييرًا، والخنوع هي الفعل السالب الذي لا يفرز أي شيء، السلطة تفرز الخوف، والخنوع شديد الشبه بقطعة الحجر التي تقذفها فتظل تنطلق حتى تسقط وتكون حركتها على الأرض نتيجة ردود أفعال لحالة السقوط، إن الحجر لا يعترض ولا يسأل ولا يتساءل، إنه حالة السكون الخانعة، والذل اللا نهائي.

يستحق الحجر قانون الغابة، الجميع يطأه، وإذا كان غير موجود فإنهم سيطأون الفراغ، هل توجد سلطة بلا شعب، أعتقد أنه نحن، فنحن في وادٍ والسلطة في وادٍ آخر، لا حلقة بيننا سوى قبول الأوامر، وأقصى حالات تمردنا هو عدم تنفيذ الأوامر، فهي رفضنا الوحيد. البعض يترك نفسه ليطأه الآخرون، والبعض المتمرد لا ينفذ الأوامر، حالة دفاع سلبي وحيدة، أمام جيوش سلسلة السلطة.

قامت الثورة الفرنسية للمساواة بين الضعيف والقوي في الحقوق والواجبات، وبين الفقير والغني، وسيقف القوي والغني أمام القانون مهما كانت تسميته ومهما كانت عائلته ومهما كان غناه، ومهما كانت حلقات السلطة التي ينتمي إليها، وهذا هو ما يحدث في المجتمعات الخارجية، الإحساس بالأمان، لأنه لم يعد أحد خارج السلطة ولم يعد أحد ظهره للفراغ والخواء، فظهْرُ الشعب في ظهر السلطة، لا تستطيع السلطة أن تمارس دورها دون رقابة وموافقة من الشعب، والشعب يمارس دوره بإيجابية، وإيجابيته مفرطة، هذا هو ما كان يجب أن يكون.
لكن الحكومة والسلطة بكل أشكالها لدينا نجحت في إقامة جدار عازل بين الحلقة الأخيرة من الشعب وبين السلطة، أو سلسلة النظام المتسلط، وبالتالي أصبح هناك قطيعان، قطيع للضباع النهمة وقطيع للأرانب، يكفي أن يدخل ضبع صغير رضيع إلى حظيرة الأرانب فيلتهم منها ما يريد دون أن تنبت الأرانب ببنت شفة، أصبحنا سوداويين جميعًا إلى هذه الدرجة العنيفة من حب الدم وحب الخنوع.
سلسلة السلطة تعني في المثل العامي (القرعة تتباهى بشعر ابنة أختها) هذا هو بالفعل ما يحدث، ولأننا مجتمع فقد ضميره ويعيش في خزعبلاته وترهاته، وما زال يصدق الجرائد الحكومية وتصريحات

الخفير والوزير ويسمع عن دولة المؤسسات ودولة القانون، لم يكتشف أن هناك كلمتين ناقصتين في هذه المسميات (دولة المؤسسات المزيفة)، و(دولة قانون الغابة). ها نحن أخيرًا أمام العالم.

إن مشكلة انسحاب الناس والشعب في الحياة، هو توليد حالة من العدمية أعتقد أننا نقاسيها الآن ونعاني منها جميعًا، فالبيئة نفسها لا تصلح إلا بصلاح العقل والإحساس بالوجود والأمان، وحين تكون المعرفة باطلة والوجود باطل والأمان باطل، تتحول كل المركبات العضوية للمجتمع (من بشر وبيئة) إلى حالة من العدمية، فيفسد كل شيء.

مجتمع الولاء البغيض السمج، الذي يولد فيه ابن أحد القابعين في سلسلة السلطة، فيضمن له عمله وهو في (اللفة)، بينما أمامه المئات والآلاف الذين لا يجدون عملاً، هؤلاء الذين هربوا إلى كل مكان في العالم بحثًا عن وجودهم فيتعرضون للقتل والمهانة، لكنهم يدركون أن القتل والمهانة والذل في الخارج أهون عليهم مما يحدث لهم في وطنهم، هذا الوطن الذي أصبح وطن شعب آخر من المتسلطين والبغاة والعدوانيين والقتلة، ونحن جميعًا مشاركون في ذلك بشكل أو بآخر.

عليك أن تزن قواك جيدًا قبل أن تتأهب لدخول أي معركة سواء فُرضت عليك أو فرضتها بنفسك على الآخرين، عليك أن تتحسس أنيابك ومخالبك وعضلاتك وطاقتك، عليك أن تتحسس الواقفين خلفك في سلسلة السلطة والذين سيساندونك ولا يتوقف ذلك على رجال السياسة والطب والقانون وغيرهم، بل هو حالة جميع طبقات المجتمع، (أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب)، حالة من اللا مبالاة والغفلة بسبب الانتماء للطبقة غذاؤها الجهل؛ ولا استثني من ذلك أي إنسان ولا حتى نفسي؛ ثم تفردنا نحن دونًا عن شعوب العالم، بأكل بعضنا البعض أحياء، مثل سلسلة الغذاء في علوم الحياة، لا سلطان فيها إلا سلطان القوة والقدرة على البطش، وفي النهاية ماذا ستكون النتيجة؟ عودة للعصر الحجري ولكن ونحن نرتدي ثياب ملونة وسيارات فارهة ونسمع الموسيقى الراقصة ونركب الطائرات، ونجلس أمام الإنترنت، ولكن أسناننا وأفواهنا تقطر دم ضحايانا.

تؤكد متلازمة السلطة نفسها بجانب القاتل التسلسلي الاجتماعي، هل هما شيء واحد؟ أم خلايا منقسمة فاسدة تولد خلايا فاسدة أخرى داخلنا وخارجنا نعاني منها، ونتمسك بها في ذات الوقت في ظل قانون

الغاب الأحمق الجاهل الفاسد المرابي في دمنا وأرواحنا ووجودنا كله؟ وهل معنى ذلك أننا نفعل ذلك عن عمد وسابق ترصد؟ هل الهدف هو الوصول إلى مجتمع له صفات معينة؟ وبالتالي التخلي عن بقية المجتمع من الفقراء والمعدمين والذين ليس لديهم نصير في السلسلة، سلسلة السلطة؟ أم أن ذلك يشمل كل المجتمع؟

في قانون الغاب ليس هناك خيار وفاقوس، وفي سلسلة الغذاء هناك دائمًا الأقوى، ومادام القاتل التسلسلي في بيئة ترتع بالفساد الاجتماعي والروحي والأخلاقي، ومادام النظام غير موجود، ومادامت متلازمة السلطة تعطي مناعة للبعض، فإننا في طريقنا اللانهائي للانهيار، كأنه عقد اجتماعي جديد على استمرارنا في التنكيل ببعضنا البعض دون أن يطرف لنا جفن.

(٩)

روح المصري الرخيصة

يعيش بعض المصريين في دول أوروبية وهم مكتسبون قيمتهم وآمنون على وجودهم بسبب قيامهم بتربية بعض الكلاب في منازلهم، يحدث ذلك في فرنسا والعديد من الدول الأوروبية، لأن روح الحيوان مهمة وروح المصري رخيصة، أو روح كل ما ينتمي لدول العالم الثالث لا قيمة لها. ما الذي أوصلنا إلى هذه النقطة الصفرية العدمية؟

سمعتُ عن المغامرات المميتة للراغبين في العمل في الدول الأوروبية من شباب مصريين بدءًا من عمر ستة عشر عامًا حتى الأربعين، وعن كيف يمكن لهم أن يقتلوا بعضهم البعض، أو يقتلهم الناقلون لهم أثناء تلك الرحلات الدامية، وكيف يمكنهم الحياة بعد أن هربوا من مصر وما فيها، كأنها رحلات العبيد من إفريقيا إلى أوروبا في القرن السابع عشر والثامن عشر، لكنهم لا يجدون حلاً آخر.. ما الذي دفعهم إلى ذلك؟ هل هي لقمة العيش؟ إنه يعلم جيدًا في رحلته أنه قد يتعرض

للقتل والموت في أي لحظة، إذن فهي ليست لقمة العيش، إنها المهانة المترسبة في الأعماق بسبب الوجود في بلد يأكل أبناءه كل لحظة، دون أمل ولا واحد في المليون في الخلاص.

عشرات السنين من الذل والهوان والاستعباد والوعود الخائبة الطائرة دون جدوى، أصبح العهد المصري الثوري الجديد هو عهد الوعود والآمال التي لا تتحقق، لأن لا أحد يؤمن بأن هدف الدولة الأساسي وهدف النظام؛ أي نظام؛ هو تحقيق هذه الوعود، والناس الذين يشكلون الآن جزءًا من سلسلة السلطة أصبحوا يتصرفون أحيانًا كأنهم السلطة، فلا رقيب ولا حسيب عليهم، وإلا ما معنى كسر الإشارة الحمراء، وخلع مقعد المحكمة، والدخول مكان الأبناء لحل الامتحانات خاصة في الشهادات في بعض القرى، ومرور سيارة بميكروفون تذيع الإجابة، وعدم الاعتراف بالأبناء رغم العقد العرفي، وحوادث القتل وسفك الدماء المقيدة ضد مجهول؟!

كلها إشارات على الفوضى، وتكسر حلقات السلطة أحيانًا، أو أنها حلقات واهية، أو عودة لشريعة الغاب. والأدهى من كل ذلك هو أن أرواح كثير من المصريين أصبحت رخيصة، رخيصة، ولا أمل لأن تستعيد قيمتها، ما دام عصر القوة هو العقيدة التي تؤمن بها كل سلاسل السلطة في بلدنا المحروسة.

الأدهى من ذلك أن بعض المنتمين للعروبة يأتون للزواج من قاصرات في القرى، فيبيع الآباء بناتهن غير آسفين مقابل بضعة جنيهات سرعان ما تنتهي، فيعد الأب العدة لبيع البنت الثانية والثالثة والرابعة وهكذا، حالة من الجهل غذاؤها الفقر والدونية، ولا أدري من ألوم، وُعود السياسة، وعود محو الأمية، وعود الكهرباء والماء التي تنقطع؛ أو لا تأتي أبدًا، فقر الدماغ، الطمع والجشع والأنانية المفرطة.. من على وجه التحديد؟

كيف هانت علينا أرواحنا إلى هذا الحد؟ وكيف هنّا على كل أشكال وسلاسل السُلطة؟ وكيف هنّا لدى الإخوة العرب؟ وكيف هنّا لدى الأجانب؟

وإذا كانت العقيدة ضد كل أشكال الانتحار، فقد أصبحت الرغبة اللا إرادية في الانتحار حالة من حالات الرغبة في التخلص من الهوان، أو الرغبة في الثراء.

سألت أحد هؤلاء الأولاد الهاربين إلى بلد أوروبية ذات يوم، ما الذي دفعك إلى ذلك، تطلع إلى بعينين صافيتين بريئتين: "أنا عاوز ألبس بنطلون جينز نضيف، وقميص أبيض كتان، وأحط سلسلة في رقبتي، وأرش على وشي بارفان حلو، صدقني مش عايز أكثر من كده"!

إذن فقد تم خلق نموذج جديد للنظافة والجمال من خلال العائدين إلى هذه القرى بعد طول غياب، لكنهم لا يدرون أنهم عائدون –أغلبهم– من العمل مع المافيا والعصابات، والعمل في التهريب والتسلل وبيع المخدرات، والتحول إلى جنس مثلي، أو متزوجين من عجائز، أو من خلال العمل في مزارع العنب المميتة، والعمل لدى اليهود ومصاصي الدماء. ولكن تبعات الصورة الخلابة السينمائية التي رأوها في النهاية هي المغناطيس الذي لا يمكن الفكاك منه.

إننا نمثل أقصي حالات الطرد المركزي للأبناء، لأننا عبثنا بكل ما هو مصري، عبثنا بأنفسنا وتركنا السلسلة الوحيدة التي تتنفس وتفعل ما تريد هي سلسلة السلطة البغيضة، مليون إنسان تقريبًا تركوا البلد بما فيها بلا رجعة، وخمسة مليون تقريبًا، تركوا خيوط واهية اسمها الإجازة السنوية للعودة إليها، والبقية التي ترقد في الداخل تتنفس جحيمًا كل يوم من السحابة السوداء، إلى مياه الشرب الملوثة، إلى الطعام الفاسد، إلى السرطان اليومي، إلى فقد اهتمام كلي بقيمة هذا الإنسان الذي أصبح ذنبه الوحيد أنه ولد على أرض هذا الوطن، أو هذا اللا وطن، الذي ينتهك عرضه كل يوم في الطابور الصباحي في المدارس الحكومية والخاصة، والذي ينتهك عرضه كل يوم في أقسام الشرطة، والذي ينتهك عرضه كل يوم في المستشفيات الحكومية،

والذي ينتهك عرضه كل يوم في طوابير الخدمات في المؤسسات الخدمية الحكومية والمحاكم، والذي ينتهك عرضه كل يوم على شاشات التليفزيون المصرية والعربية والأجنبية على حد سواء.
وبعد ذلك نشكو من الذل والمهانة، ونسأل أنفسنا: لماذا أرواحنا رخيصة إلى هذا الحد؟!

إذا وجدتَ أن سلسلة السلطة لا تحافظ سوى على نفسها، وأن رجال الأعمال أصبحوا يشكلون الحلقة الثانية في السلطة، وأن رجال السلطة التنفيذية من رجال شرطة وعسكريين أصبحوا الحلقة الثالثة، وأن أصحاب الفكر والمثقفين والأكاديميين ورجال السياسة من الشرفاء أصبحوا في الحضيض، فلماذا لا تقيم سلطتك بنفسك؟
رحم الله (عبد الناصر) الذي جعل من رجال الجيش رجال سلطة دون أن يفقهوا شيئًا في السياسة، فخربت البلد. ورحم الله (السادات) الذي جعل من رجال الأعمال رجال سلطة فأصبحتْ بلد من يملك.
وها هي الآن تتحول أو تحولت عمليًا إلى كائن غريب ومشوه، كل من يملك فيها أي شيء شكل من أشكال السلطة – مالاً أو مركزًا أو عزوة أو بلطجة – يمارس سلطة في غياب كامل للقانون وللمؤسسات، لأن كل أصحاب السلطان صعدوا على أكتاف الأربعة المشار إليهم، في غفلة من الزمن طالت كثيرًا فصعد كل هؤلاء، وأصبح ما يتردد

على نصف لسان شعب مصر (إنت ما تعرفش أنا مين؟)، وهي الجملة السحرية التي تقال الآن في كل الأماكن، والتي تسمح لك بهتك عرض القانون، وفقأ عيون من ينظر إليك، والخوض في كروش من يقف في وجهك، وفي حرق قسم الشرطة نفسه إذا اعترض.

حالة من التسيب الخطير الذي ترك الأرواح في النهاية بلا قيمة، ونسأل بعد ذلك لماذا نحن بلا قيمة وبلا ثمن، بعد أن كنا القيمة الوحيدة في العالم، أو قيمة العالم نفسه، نسأل من فعل بنا ذلك، فلا أجد سوى أصابع الاتهام جميعها تشير إلينا، نحن من فعلنا ذلك بأنفسنا، نحن من ولينا على أنفسنا شرذمة من الموظفين والخانعين ومدعي الألوهية، نحن ضعاف النفوس، شديدي اليأس، ضائعي الروح، نحن من ارتضينا السكنى مع الفئران، نحن من ارتضينا الذل والهوان، فليكن عقاب الله علينا جميعًا، فنحن نستحق ما نحن فيه، ولا ألوم في ذلك أحد سوى أنفسنا، نحن من جعلنا أرواحنا بلا قيمة، فـ"وطينا" للسلطان وكلاب السلطان وفئران السلطان وصراصير السلطان وخراء السلطان في النهاية، وكل هؤلاء هم سلسلة السلطة في بلادنا المحروسة من كل شيء، المحبوسة عن الحرية والديمقراطية والرفاهية والصحة والذكاء والروح.

لعنة الله عليك يا (أفلاطون) ويا (فرنسيس بيكون) ويا (طه حسين) ويا (العقاد)، لماذا زرعتم في عقولنا التمرد وفكرة المحبة على الأرض والقدرة على الرؤية؟ ألم تكن أرواحكم رخيصة أنتم أيضًا؟

أرواح رخيصة، حُرق منها ما حرق في بني سويف، أرواح رخيصة غرق منها ما غرق في البحر الأحمر، وفي الحالتين هرب القاتل بمساعدة السلطة، زاغ (فص ملح وداب)، ولن يعود، لأن أرواحنا رخيصة، الألف منها بقرش في (سوق التلات).

وإذا كان هذا الأذى والقذى آت من السلطة، فهل سكتنا نحن عن بعضنا البعض؟ فها هو ممثل داعر درجة عاشرة ينفي علاقته بابنة مسكينة بعد أن وعدها بالزواج، ويخرج المسؤول عنه جينيًا، وهو من سابق ينفي علاقة ابنه بتلك البنت، وتنتحر زوجة بعد سنوات من الزواج لثبوت علاقة رضاعة مع زوجها في الصغر، وتموت بنت في مستشفى جامعي من الإهمال، ويقتل مجنون شخص ويصيب عشرة داخل ثلاث كنائس، ويهرب الأستاذ (س) إلى لندن بمساعدة السلطة أو عدم مساعدتها؛ لا فرق.

هذا هو ما يحدث؛ هوان وإفك وحمق واسترخاص واستهبال واستعباط، كله فعل في (الإست) ولا مؤاخذة، جميعهم يفعلون ذلك دون أن تهتز شعرة في رأسهم اللامع الحليق.

إذن فنحن نقع بين سلطة أتت بالتزوير، وسلطة أتت بالبلطجة والأموال و(الفِردة)، وربما يفسر ذلك سبب رخص أرواحنا عليهم، إلى أن أصبحت أرواحنا رخيصة علينا أيضًا.

ويبقى السؤال: متى تكون لأرواحنا قيمة؟

حين ينتهي عصر الديكتاتورية وعصر الصوت الواحد، حين يصبح القانون سيد الجميع، ولأنها أضغاث أحلام فأنا أرددها باستمرار، فيكفي أن أموت وأنا أحلم من أن أموت وليس لي القدرة على الحلم، هذه أصبحتْ أعزّ أمانيّ في زمن عز فيه كل شيء.

متلازمة السلطة تبرز في أحد أشكالها في شكل سيطرة السلطة التنفيذية، وتمحك بقية السلطات بها، وليس العكس، مرة أخرى نحن في حاجة إلى روح جديدة يمكن أن نستمدها من بعض النماذج الناجحة التي لا تبالي بالقاتل التسلسلي أو بمتلازمة السلطة، نماذج استطاعت الوقوف في وجه كل ذلك وصنعت لنفسها جزرًا نظيفة منعزلة في قلب هذه البقعة السوداء، نماذج من السلطة ونماذج من القانون، ونماذج من الصحافة والطب والجامعة. أتساءل فقط متى يمكن لنا أن نزيد من رقعتها حتى تعود المحروسة إلى سالف عهدها منارة العالم وحاضرة التاريخ وحاضنة العلم ومنارة الفن والثقافة.

متى يمكننا القضاء على هذه السلسلة البغيضة؟

(١٠)

قبول الآخر وآخرة القبول

كيف تحول المجتمع المصري المتسامح منذ عشرات القرون إلى مجتمع يرفض كل شخص فيه الآخر، خوفًا وطمعًا؟

كيف تحول إلى حالة التنافر والتطاحن والتطاول والرفض والهدر؟ كيف أصبحنا لا نرى سوى أنفسنا؟ ولا نجد مكانًا سوى لأنفسنا؟ ولا نؤمن سوى بأنفسنا؟ كأن كل ما عدانا وهم وسراب وعدم لا يستحق الرؤية أو السمع.

هل أثرت النكسات وانهيار القدوة والقيمة واستشراء سلسلة الديكتاتورية والخوف من السلطة بكل أشكالها فوصلنا في النهاية إلى ما نحن فيه من تغريب؟ كأن كل إنسان فينا يعيش في جزيرة منعزلة محاطة بأسلاك شائكة من الرغبة في الغدر واتقاء الآخر بأي شكل وبأي وسيلة، فلا يقبل الأب أولاده ولا تقبل الأم زوجها ولا يقبل الرئيس موظفيه، ولا يقبل المدرس تلامذته؛ والعكس صحيح، ولا يقبل أصحاب السلطة بعضهم بسبب تناحرهم عليها، ولا يقبل

المرؤوس بقية المرؤوسين لأنهم يزاحمونه لدى صاحب السلطة، لأن القاعدة أصبحت كن قريبًا من السلطة واحمل فأسك خلف ظهرك، فإذا أتتك الفرصة تخلص منها، وإذا لم تأت فأنت تستعمل فأسك في حرث الأرض تحت أقدامها، هل هذه هي القاعدة الذهبية الآن لعلاقاتنا ببعضنا ببعض؟.

سيطرت عقدة الخوف وشوهت حالة التسامح التي كانت يومًا ما راسخة داخلنا، هل ما حدث من انتهاكات من قبل الآخر – أيًا كان موقعه وأيًا كانت سلطته – حين أغلق هذا الخوف كل أبواب القبول وكل نوافذ التسامح ولم يعد ممكنًا – مع طول الزمن – سوى القبول بفكرة أن آخرة القبول للآخر هي تفجر الدماء والسجن والسحل والاغتصاب والإبعاد والتآمر... وكل أشكال الجريمة التي يمكن أن ترتكب سوف يتم ارتكابها فيك إن آجلاً أو عاجلاً، فابتعد ما استطعت عن الجميع.

ولا يعني ذلك أن كل شخص يقف بمفرده، فالذباب لا يتجمع سوى مع الذباب، والحمير لا تجتمع سوى مع الحمير، والطواويس لا تجتمع سوى مع الطواويس، والضباع لا تقترب إلا من الضباع، وفتات الموائد بعد ذلك للخدم، وبالتالي انتهت واضمحلت فكرة قبول الآخر المثلى والتي قام عليها المجتمع لمئات السنوات.

وعلى سبيل المثال نحن نفتح أذرعنا لكل غريب يأتي من الخارج، لكننا أقفلنا صدورنا وعيوننا عن كل ما هو مصري، ولأننا كذلك فقد أصبحنا نأكل بعضنا البعض حين نعيش في الخارج مثلاً، سمحنا للجميع بأن يشمت بنا وينكرنا ويدعي عدم وجودنا، بل وصل الأمر بالبعض في الدول العربية إلى كراهية كل ما هو مصري، لماذا؟ لأننا فقدنا الثقة في أنفسنا، ولأننا ليس لنا علاقة جيدة ببعضنا البعض، ولأننا أصبحنا نموذجًا سيئًا، يقول ما لا يفعل، كيف كنا نبني أحلام الوطن من المحيط إلى الخليج، ودون أن ندري حطمنا الجميع، ولم يتبقى سوى الشراذم التي تتجرع النفط وتبيع النساء وتتحالف مع الشيطان، هذا الآن هو حالنا غير المأسوف عليه.

أصبح المصريون يعيشون في حلقة مفرغة من العنف والعنف المضاد، ليس من المهم أن يكون هذا العنف صياحًا ودمًا وشتائم، بل قد يكون عنفًا سلبيًا يظهر في التعامل مع كل آلة أو جماد أو حائط.

انظر لأطفال المدارس وهم يهشمون المقاعد والطاولات والمصابيح والصنابير، وهم يضعون مساميرهم في السيارات الواقفة، انظر للإهمال المستشري كأنه وباء كالطاعون، انظر للشوارع وأكوام القذارة، إلى النهر الميت الذي قتلناه بسبب تسيبنا وقوانينا المطاطة، وروح التربح والجشع.

جزء من كل ذلك بدأ من لحظة انهيار قبول الآخر داخلنا، وساعد على ذلك المواقف السلطوية الشاذة، التي ارتضت في النهاية الهوان لأبناء الشعب المتهمين الآن بأنهم لا يفهمون ولا يهضمون الديمقراطية سأصوت معهم، ولكن يبقي السؤال: من فعل ذلك ولماذا؟

لأنهم لا يريدوننا أن نفهم، يريدون عقولنا دائمًا في غيابات السجون، ولم تكن الحرية أبدًا منحة من الحاكم، لكن ها هي لدينا هنا في قلب العروبة الذي مات وشبع موتًا، لأن الإبداع تم قتله وتشريده، وإيداعه المعتقلات، وأوقفوا أمام بوابات الإبداع جيوشًا من الأمن المركزي والضباط، الذين لم يتعلموا الحفاظ على الناس، وإنما الحفاظ على بؤرة النظام، السلطان، وبالتالي لم يعد الآخر مقبولاً، فنحن (حرامية) في المظاهرة، ونريد قلب نظام الحكم في التجمع، وشوية عيال في السجن، هذا هو الحال، كيف يمكن أن يكون النظام مسؤولاً عن حرية الناس وتعليمهم وتثقيفهم وهو يضع عقولهم في السجون.

منذ خمسين عامًا ويزيد، منذ بداية تأييدنا للثورة العظيمة ونحن نزج كل يوم كقطيع الأرانب والخراف في السجون، هل يمكن لوطن يأكل أبناءه أن يكون وطنًا؟ تحول الوطن إلى مقبرة للعقول وبالتالي لم يعد مقبولاً أن يكون هناك قبولاً للآخر، لأن آخرة هذا القبول جحيم،

هذا هو ما نجحت فيه السياسة اللعينة لدولتنا، ونجح فيه رؤساء الجمهوريات، ونجحت فيه كل أشكال السلطة في تلك السلسلة الرهيبة القائمة على الثأر والاستلاب.

عدم قبول الآخر، رد فعل طبيعي لسياسة المعتقلات والسجون والإهمال والتجاهل والكذب والبهتان وسوء الإدارة وتدني الاقتصاد وتخلف التعليم وانهيار الصحة وانقطاع الكهرباء والمياه وطفح المجاري، ماذا يتبقى بعد ذلك لأن نقبل به؟

سأعطيك مثالاً، اجلس مع بعض المدرسين أو المحامين أو المهندسين أو الأطباء أو أساتذة الجامعة أو على المقهى، بمجرد انفضاض الجلسة ستجد من يتآمر عليك أو يتهمك بالتآمر، أو ينعتك بالغباء وعدم الفهم، أو (شايف نفسك، وقد تكون فعلاً شايف نفسك)، أو بأنك كذاب، أو بأنك ليس لديك قبول للآخر؛ وقد يكون هذا صحيح في حالتين: إذا اختلفتَ معهم في الحوار، أو بين الأنداد في التخصص الواحد أو المهنة الواحدة.

وهناك العديد من الأمثلة الفردية التي عاصرتُها والتي كان من نتيجتها عشرات المعارك على المستوى المهني.

عدم قبول الآخر حالة عدمية، ومؤشر في غاية الخطورة على مستقبل المجتمع؛ وليس الأفراد فقط؛ نحن نقتل أنفسنا ونقتل روح الديمقراطية التي نبكي عليها جميعًا الآن، سأسمح لكم جميعًا بالاختلاف معي، لكن هل معنى ذلك إلغاء وجودكم وتسفيه فكركم وبأنكم غائبون لا تسعون سوى وراء مصالحكم؟

قبول الاختلاف هو أول شروط الديمقراطية، والقضاء على هذه السمة يعني أننا وضعنا رأس الديمقراطية تحت المقصلة، أما جسدها فهو يترنح مذبوحًا في الطرقات.

لقد نجحت مؤسسة الدولة في تركيع الجميع، وبث الخوف في الجميع والنكاية من الجميع، بحثًا عن وجودها هي فقط، وإذا اعتبرنا أن جسد الدولة هو الشعب، ورأس الدولة هو النظام الحاكم - من منظور إداري - فإن أي رصاصة تُطلق على الدولة سوف نجد رأس الدولة/ السلطة يحمي نفسه معرضًا جسد الدولة/ الشعب للأذى، مع تزايد الضربات ينحني الجسد ويختفي الرأس بين الذراعين/ الشرطة والجيش، ويصبح الجسد مكشوفًا أمام كل الضربات والطعنات التي توجه إليه، حتى يُنهك تمامًا ويسقط، وحين ينتهي المعتدي، يكون الجسد شبه ميت، أما الرأس فما تزال كما هي.

هل هذا هو ما يحدث بالضبط؟ خوف النظام يدفعه إلى التضحية بالشعب (عمال على بطال)، من أجل المحافظة على وجوده؟ ربما.

من أين أتى النظام بهذه الفكرة الملكية؟ لا أدري حقيقة، ربما هي رد فعل بيولوجي أو سيكولوجي، حب البقاء، والذي يبقى هو من يستطيع أن يحافظ على غطائه، وسيتفتت من هو مكشوف، وبالتالي فأنا لا أرى سوى أن جميع الناس مكشوفون أمام تلك الطعنات الغائرة التي تأتي من الخارج/ المعتدي.

لكن القضية قد لا تكون كذلك بالمرة، فالرأس الإداري/ النظام في صراع دائم مع الرأس المفكر/ العلماء والفنانين والمثقفين وشرفاء السياسة، وبالتالي فإن أول صراع يحدث يقوم الرأس الإداري بوضع الرأس المفكر في المعتقل، ويتفنن بعد ذلك في التضييق على كل مؤسسات المجتمع، فيبدأ بكل أشكال السلطة ويحولهم من منتخبين بشكل حر إلى منتخبين بالتزوير أو بالتعيين.

هذا هو ما يفعله أي نظام فاشل في العالم، وبالتالي تبدأ سلسلة عدم القبول، أقبل بمن؟ من أتى بهذا الكيان ليكون مسؤولاً عنى، ويبدأ الكيان الغاصب – الذي أتي عن طريق التعيين أو التزوير – في الاعتماد على معاونين من الفشلة وكتبة التقارير والملوثين والمزيفين.

وتبدأ سلسلة أخرى من عدم القبول، ربما وصفها جيدًا كاتب رواية (١٩٨٤) وصاحب (مزرعة الحيوانات)، حين تحدث عن مستقبل الإنسانية حين يحتل الأرض نظام فاشي، يجعل الأب رقيبًا على ابنه وزوجته والعكس صحيح، أجيال طويلة من كتبة التقارير وماسحي بلاط السلطان.

المشكلة الأكبر، والمعضلة الأدهى حين نتحول جميعًا إلى فاشيين بشكل أو بآخر، وأول حلقات الفاشية عدم قبول الآخر، وقتل روح التسامح، لأن الآخر أصبح مجهولاً، لا تدري من أين أتى، من النظام أو من أي بؤرة فساد، حالة من التقيح الاجتماعي التي امتدت في جميع أجزاء جسد الوطن.

لم أعد أؤمن بالعلاج لمن هو موجود، فقد تلوث، العلاج يبدأ بمن هو آت ولم ير الحياة بعد، هذا هو الحل الوحيد، جيل جديد تمامًا لم يتشوه ولم يتلوث بعد... هل نستطيع إنقاذ الأجيال القادمة والجديدة دون أن نعرضها لمتلازمة السلطة والقاتل التسلسلي الاجتماعي؟

أعتقد أننا نستطيع، وأول ذلك هو قبول الآخر، الحوار الاجتماعي المبني على أننا جميعًا مصريون، ونرغب في صلاح هذا البلد واستعادته من جديد، وعدا ذلك فنحن هراء.

(١١)

قبول فساد الدي إن إيه DNA

ودي ان ايه الفساد

هل الخلية الوراثية لنا أصبحتْ فاسدة، أم أن الفساد فعل له خلية وراثية خاصة به؟

أعتقد وأتخيل وأظن أننا أصبحنا دولة من أكبر دول العالم لها اقتصاد خفي – مع تحفظي على كلمة دولة إلا إذا كنت أعني أنها مكان جغرافي له حدود معينة – لأن الدولة التي يفقد فيها القانون هيبته ليستْ دولة وإنما هي حالة ميئوس منها من تفشي الفساد.

العديد من الصحف والمجلات العالمية تناولتْ قضية الفساد في مصر، تناولت فيها الفساد السياسي والاقتصادي، ومع يقيني بأنه لا دولة واحدة في العالم خالية من الفساد، ولكن ماذا نفعل مع الفساد الذي يزكم الأنوف ويعمي العيون ويكمم الأفواه ويعقد الألسنة ويخرم الجيوب؟

هنا لابد من وقفة مع الفساد الجمعي والاجتماعي، البقشيش فساد، والرشوة فساد، والمحسوبية فساد، ناهيك عن العلاقات الاجتماعية الفاسدة، لا أستثني أي مؤسسة ولا أستثني أي أحد، فالضحكة في غير محلها فساد، فهل تم اللعب في جيناتنا لنكون فاسدين؟ أم أن أحد جيناتنا التي ولدنا بها مختصة بالفساد؟

الأولى والثانية يصعب التخلص منهما، لنبدأ من البوابة الأولى للدولة؛ من المطارات والموانئ، من الضرائب والجمارك، من المدارس والجامعات من المصانع والكباري، من المؤسسات الحكومية وغير الحكومية، لا بد أن تدفع لتمرّ، المرتبات هزيلة تشجع على الفساد، والفقر يطحن يشجع على الفساد، والعلاقات الفاسدة لا بد منها كي تستطيع أن تمرّ، العمال في المطار منظرهم مزري وهم يمدون أيديهم إلى الجميع، والكناسون والزبالون يفعلون ذلك، وكل صاحب قوة أو سلطة يفعل ذلك، أسألوهم من أين لكم هذا، فلا المهندس الذي يعمل في الحي ولا الضابط صاحب السلطة ولا الطبيب حديث التخرج كان يمكن أن يكون لديهم كل ذلك دون أن يكونوا فاسدين بشكل أو بآخر.

أصبح الفساد هو روح المجتمع وسلطانه، لا يمكنك أن تخطو خطوة للأمام دون أن تدفع، ولا يمكنك أن تخطو للأعلى دون أن تنزع من

نفسك شيئًا ما اسمه (الكرامة)، ولا يمكنك إلا أن تخلع قطعة من ملابسك، أي مجتمع هذا اللعين الذي لابد فيه من ذلك، وإلى أين يذهب الشرفاء والجوعى والمحرومون، فلا تشفع لهم قدرات عقلية متفوقة، ولا يشفع لهم تدينهم وكبريائهم، اللعنة على الكرامة والكبرياء والشرف هذا الثلاثي الأسطوري الذي نقرأ عنه في التاريخ، أين القانون الذي يحمي الضعفاء من قاتل السلطة التسلسلي؟ ذلك الذي يختار ضحاياه بالآلاف والملايين، إذا لم تستطع أن تسرق عليك أن تكون (مُسهلا)، والتسهيل في القانون عقوبته رديئة وبسيطة ولا مانع من تحملها إذا طالتك يد القانون العاجزة، أصبح الشرفاء قلة نادرة تكاد تندثر كحيوانات الغابة الإفريقية، سلالة لا داعي لوجودها فهم يقفون ضد رجل الأعمال وسلسلة السلطان.

يجب أن يتلاشي النظام حتى تهدم الحرية على عروشها، النظام الذي يمكن أن يحيل حياة البشر التعسة إلى حياة سعيدة، أصبح لدينا نظام مشوه يدين الشرفاء والأبرياء ولا مانع من اتهامهم بالجنون إذا طفح بنا الكيل أو سدت علينا الطرق.

ولأن الحرية أصبحت أمرًا صعبًا، فقد أصبحنا بلا تاريخ وبلا وزن وبلا قيمة، فالحرية هي التاريخ، والتاريخ المكتوب هو تاريخ الحرية،

فليقل لي أي عاقل منذ متى ونحن بلا حرية، بلا نظام، بلا جدوى، والفساد يقتل النظام، وموت النظام يؤدي إلى وفاة الحرية، وانقطاع الحرية يؤدي إلى اللا جدوى والعدمية، وكلما استشرى الفساد وتجذر، كلما ماتت الحرية.

تعود نظرية الأواني المستطرقة مرة أخرى إلى تأكيد نفسها، كأننا مجموعة من الدوائر والحلقات الدخانية السوداء التي لا تنقشع، وإنما تزداد سوادًا مع مرور الوقت، التغيير هو الحالة الوحيدة التي تؤدي إلى النظام وعودة الحرية، ولكننا فقدنا الإرادة في التغيير حاكمًا ومحكومًا، حالة من الخوف الكامن والقابع الذي ينحل في وبر الخلق جميعهم، منذ متى كنا كذلك؟

كأن كل شيطان يذهب يسلمنا إلى شيطان جديد يأتي، انهزمت الإرادة وماتت ولم يمش أحد في جنازتها، الخلية الفاسدة تدعونا لطأطأة الرؤوس والانزواء والرحيل، كأننا نريد وطنًا آخر غير وطننا، فليمرح كُتّاب التقارير وباعة الكتب من الأساتذة الجامعيين، والمتملقين من المفكرين، وذباب الموائد، فها هو وطن يموت أبناؤه دون أن يستطع أحد منهم شيئًا، فالحديد والنار وآلات التعذيب والمباحث والبغاء والآمال الميتة تقف كشواهد القبور فوق رأس كل مواطن، والمواطن أصبح فاسدًا، أما فساد الروح أو فساد الإرادة أو فساد الإحساس

والذوق وقبل هذا وبعد هذا وفي خضم هذا فساد العقل، لا أجد أي عقل قابل للنقد الآن، فكل شيء يعمل بلا عقل، فقط الثأر، الضمير أصبح في خبر كان، كأنه لم يولد ولم يوجد قط.

لا يوجد مواطن في العالم يخاف الدخول إلى قسم شرطة مثلما يخاف المواطن في مصر، إنه البلاء المبين والعياذ بالله، أي حقوق إنسان نتحدث عنها؟ وأي حقوق - ولا مؤاخذة – هي التي نتحدث عنها؟ وأي إنسان بالله عليكم هو الذي نتحدث عنه؟
أصبح لدينا مؤسسات لحقوق الإنسان، ومناهج لحقوق الإنسان، افرح يا قلبي، ولترتفع عقيرتي بالغناء، فها قد أتى بطلٌ آخر من أبطال (سرفانتس) ليقاتل معركتنا الخاسرة.
أليس هذا الفساد بعينه وأم رأسه أم أننا (ولاد كلب لا نستاهل الخير)

النتن ذو الرائحة أحد معاني الفساد، والفساد له رائحة عظيمة، وثمة معنى آخر هو الخلل والاضطراب والتلف والعطب والضرر، إذن فنحن مختلون ومضطربون وتالفون، فهل ينفع فينا إحياء؟
وإذا قررنا محاربة الفساد، فمن نحارب؟ الذين يدفعونا للفساد؟ أم الذين يلعبون في حياتنا؟ أم الخلية الفاسدة داخلنا؟ وكيف؟

داء الفساد النظام والحرية، هذه هي العلة الوحيدة التي لها علاج معروف، ولكن هل نبحث عن النظام ومن ثم نبحث عن الحرية، لقد أخذنا نعيد بناء النظام منذ ما يزيد على نصف قرنٍ، ونسينا، أن الهدف منه الحرية، ولكي يمكن أن يسمى النظام نظامًا لدينا؛ كان لابد من القمع والتفقير والتشريد والتجويع، وعلى ذلك فإن أشهر عباراتنا هي (إيه رأيك في النظام؟) ونسينا تمامًا أن كل حركة من حركات التنظيم يجب أن يعقبها حالة من الحرية، وبانتهاء بناء النظام، كان لابد من وجود الحرية، ولكننا لم نجد سوى خيال مآتة في النهاية اسمه "حرية الكلام".

أعلم تمامًا أن سطرًا واحد من هذا الكلام، لو كان يلعب في صدري أيام (عبد الناصر) ولم أسطره بعد في الكتاب لكنتُ في غياهب المعتقل، وأيام (السادات) لو كنتُ كتبتُ السطر لكنت في غياهب المعتقل، ولكن ماذا أفعل وأنا أكتب كل ما في داخلي والوطن بأكمله قد تحول إلى معتقل كبير، فلتقل؛ فلن يسمعك أحد، هذه هي الثورة البيضاء (تقولش مغسولة في بلاد بره) وهذا هو ما حل بنا في النهاية، نحن الفاسدين ظلمًا وبهتانًا.

وكأن الفساد مُرٌّ لابد من تجرعه، بسبب الفقر الذي هو أمّر منه، ولكن ماذا نفعل في رجل أعمال لديه الملايين وهو فاسد؟ وماذا نفعل في وزير يمتلك السلطة فاسد؟ ماذا نفعل وهذه هي النماذج الساقطة الوحيدة أمامنا؟ ألا نفكر بأن الفساد أمر جيد ومقبول كي نستطيع الحياة؟ أصبح الوطن كله بيت سيء السمعة – مع الاعتذار للراحل الأستاذ نجيب محفوظ – من الحارس أمام المدخل، إلى جميع القاطنين فيه، أصبحتْ زيجات رجال السياسة ورجال الأعمال تعني أن معاهدات الفساد يتم التوقيع عليها في غرف النوم، وهل كان يستطيع رجل أعمال أن يستورد العلف ليأكله البشر، أو اللحم الفاسد أو الدجاج الفاسد دون أن يكون عالمًا بأن النظام قد مات وشبع موتًا، وأن القانون في غيبوبة، وأن هناك مصالح تتحرك من تحت المنضدة، وأن المسهلين كثيرون، لم يكن ذلك ليحدث في دولة تحترم نفسها ومواطنيها، وهل لو كان فيه نظام ما كان مثل وزير الزراعة الذي سمم بدنا ودمنا وأورثنا السرطان، وهل لو كان فيه نظام ما كان مثل المخلوق المدسوس على الصحافة المائع صيتًا وصوتًا، وهل لو كان فيه نظام ما دخل الآلاف السجون باسم قانون الطوارئ وليأتي بعده قانون الإرهاب المشبوه، أليست كل علامات عدم وجود النظام هو

اعتراف مسبق بفساد النظام وبأن هدفه ليس الحرية وليس العدل وليس المساواة وليس الرفاهية وليس الديمقراطية، وأن هدف النظام الحفاظ على نفسه فقط، وحتى إذا كانت خلية الفساد موجودة بالوراثة أو واردة من الخارج، فإن النظام كان يمكنه اقتلاعها لو وجد من يوجهه إلى الحرية، لنصرخ جميعًا... يا حرية.

أفهم جيدًا مدى سواد الصورة، وأن دفن رؤوسنا في الرمال لن يجدي، للأسف الشديد رغم كلاحة سواد هذه الصورة فهناك الكثيرون الذين يعشقون هذا البلد ويريدون دفع أرواحهم ثمنًا لرؤيتها أعظم دولة في العالم، ولكن لن يتحقق ذلك دون تكاتف الجميع حاكمًا ومحكومًا وكل المتعلقين بسلسلة السلطة لمحاربة الفساد والقضاء على القاتل التسلسلي ومتلازمة السلطة، وأن يؤمن الحاكم بأن الحرية والرفاهية والديمقراطية هي أسباب وجوده على سدة الحكم، وأنها أهدافه التي يعمل من أجلها، وأنها أهدافنا أيضًا، وبأننا سنضعه فوق أكتافنا وفي "نني" عيوننا إذا كانت نواياه وأفعاله هي ما نريد، وليس ما يريده القاتل التسلسلي، وليس ما تريده حلقات السلطة المتراكبة والمتراكمة.

لا يمكن لنا أن نتحرك إلى الأمام ونبني مصر الأمل دون أن تفك القيود عبر مشروع زمني قصير، وأن تترك الحريات التي تحدد المسؤوليات، وقتها ستعود مصر منارة العالم القديم والحديث والمعاصر، يومها سنقول كلمة "ريادة" دون أن نخجل، يومها سيلتئم شمل العرب الراغبين في الوحدة.

إن عقل الفساد والمكر سيختفي إذا ظهر عقل النور والعدل والحرية والمساواة.

(١٢)

ذئاب السلطان وسلطان الذئاب

كيف يرضى صاحب فكر أو عقل أو قلم أو مال أو جاه أو حتى من ليس لديه أي شيء أن يكون من ذئاب السلطان؟

إنها حالة غريبة لا تكاد توجد في العالم، ومن المؤكد أنه إذا زادت الذئاب حول السلطان، فإنه لن يكون في النهاية سوى سلطانًا على مجموعة من الذئاب، ولن يسمع سوى عوائها وهو الصوت الوحيد الذي سيدركه ويحبه، وسيكون أي صوت آخر نشازًا آتيًا من جُبٍّ عميق، وسيصور له خياله أن هذه الأصوات هي أصوات الجن والعفاريت والعياذ بالله، ولن يذهب به ضلاله أبدًا إلى أن هؤلاء هم الرافضين له ولحكمه ووجوده، أو أنها أصوات الجوعى والمحرومين، وإذا صدق للحظة فسينفي عنه الذئاب هذا التصديق.

كما أن للذئاب ميزة أخرى، فهم حراس لكل شيء فلن يصل حرفٌ واحد من الخارج إليه مغلوطًا، سيصل إليه كما يحبه السلطان، الذي لا يرى في شعبه – إذا آمن بأن خارج السور شعبًا – واحدًا؛ واحدٌ فقط؛

يمكن أن يخلفه إذا ألمّ به مكروه، ويمكن أن يخرج هذا الواحد من هؤلاء الذئاب، وبالتالي فلن نكتب سوى تاريخ العواء، وما أحلاه من تاريخ.

المشكلة أن سلسلة حلقات ذئاب السلطان تكاد لا تنتهي، فهم في كل مدينة وحيّ وشارع وقرية وكفر ونجع، سلاسل وراء سلاسل من الذئاب، من الهتيفة والبلطجية والمنتفعين، كلٌّ يحصل على قدر حجمه من دماء الوطن، كأن الوطن قطعة من الجاتوه – ولا بلاش الجاتوه علشان ماري أنطوانيت ما تزعلش – كأنه قطعة خبز لابد لكل واحد من قطعة، سلسلة من النفعيين والطفيليين، كثيرين ليس لهم عدد.

السؤال الثاني: هل ذئاب السلطان وُجدوا قبل التاريخ؟ وإذا وجدوا قبل التاريخ؛ فكيف أصبح عددهم كبيرًا لا يحصى هكذا؟
هل ذئاب السلطان نوع جديد من العبيد، نوع تم استنساخه من جينات قديمة لم تعد موجودة الآن لكننا احتفظنا بسلالاتها في ثلاجة التاريخ نخرجها وقتما نشاء؟، أم هو تطور لحالة الخنوع والذل والهوان التي يرضى بها الناس –خاصةً بعض المفكرين– وهم يقتربون من نهاية رحلة العمر الرذيلة؟ أم أننا لم نتخلص على الإطلاق من هؤلاء العبيد وإنهم كانوا موجودين بشكل أو بآخر في المجتمع ولم يختفوا؟، أم أن

الخوف يشل أقوى العقول وأكثرها قدرة على الرؤية والتفكير؟، أم أن استمرار النعيم والرفاهية والتمتع ببقايا مائدة السلطان حالة موجودة؟ ومن المؤكد أن بقايا مائدة السلطان أفضل ألف مرة من أي مائدة مهما كانت، أو أن هناك رغبة مشتعلة داخل هؤلاء لإرضاء السلطان، للحصول على مزيد من المناصب والأموال والمميزات العينية؟

لا أفهم كيف يمتلك وزير؛ كانت أمه تبيع المحشي على قارعة الطريق؛ شاليهًا في مارينا ثمنه عدة ملايين من الجنيهات، أو حسابًا في البنك في سويسرا، أين هذا الملعون من (أين لك هذا؟) وكيف تصدر بعض القوانين والقرارات لدعم أعمال هؤلاء، وإذا كان القانون لن يطولهم وإذا كانوا يلقون دعمًا حكوميًا، فمن المؤكد أنهم سوف يستمرون في العواء، حبًا في السلطان وكرهًا في الناس، أي ناس يقفون ضد السلطان، أو أن رائحتهم يشتم منها خطرًا على السلطان أو أنهم متمردون بشكل أو بآخر.

العالم العربي يمتلئ بذئاب السلطان، ولكننا تفوقنا عليه جميعًا بذئاب جديدة، تحيك القوانين سيئة السمعة بقلبٍ من حديد، ولا تخاف لا من الله ولا من الناس، ماتت ضمائرهم وتعفنت، ولهم قدرة شيطانية على كتابة التقارير حتى أصبحنا (بلد تقارير صحيح).

ذئاب السلطان الآن هي صاحبة الامتيازات في تعيين الأقرباء، وفي إقصاء من لا يعجبهم، وفي تعظيم معيار الولاء والانتماء على معيار الكفاءة والإبداع، حتى سادوا كل المؤسسات والمدن والجامعات والقرى، أصبح كل شيء بالتبعية، فاضمحل إبداع الوطن العربي، ليحل محله إبداع الوطن السرّي.

لا تصدقوا الكتب التي تنشر في المؤسسات الحكومية فهي إما بالرشوة أو المحسوبية ولا شيء آخر، لا أحد يقرأ، حتى لو كانت هناك ألف لجنة للقراءة فكل ذلك دجل وشعوذة حكومية، وما تبقى داخلها هم بعض من شراذم للشرفاء.

وبمناسبة الذئاب فهي أنواع، وهم مفيدون للسلطان في كل موقف، فبعضهم يكشر في وجوه الناس للتخويف والترهيب؛ وهؤلاء أنتم تعلمونهم جيدًا؛ والبعض يُعطي صورة رسمية جميلة للدولة؛ وهؤلاء أيضًا تعلمونهم، والبعض يستخدم في المساخر، وللإيهام بحالة الحنان.

السؤال الأهم هل الصفات الذئبية اخترقتْ العقل المصرية لتلغي بعض خلاياه، فيبدو المرء كحارس للسلطان ومدافع عن وجوده، من خلال تفانيه في تعقيد صيغة القوانين وجعلها مستحيلة التطبيق، أو في

دعم ظهور قوانين معينة لصالح أفراد بعينهم، أو في التصريح باسم السلطان، أو في تفسير أقوال السلطان؟ حتى إنني انتظر صدور عنوان (عواء الذئاب في تفسير الأقوال الهباب)لكثرة ما قدمت من تفسيرات.

المشكلة الأكثر ألمًا أن بعض الذئاب تصورت نفسها سلاطين، وهذه قمة المأساة التي نعيشها، فذئاب السلطان شلة معروفة في كل مكان وزمان، ولكن استفحل الأمر في بلدنا ليتحول بعض الذئاب إلى سلاطين، مثل حالة رئيس التحرير الذي غار؛ والذي كان عارًا على السلطة وعارًا على الشعب المصري وعارًا على ما هو مصري، كيف أمسك هذا العربيد بقلم وكيف كان يكتب الفتوحات عن الرئاسة في مصر، وكيف لرجل قانون مشهور أن يحيك قانونًا عليلاً، وكيف يمتدحون هذا القانون الأهبل المرقع، وأي حرية يمكن أن تأتي به للشعب مثل هذه القوانين؟.

المشكلة الواضحة أن بعض أبناء هذا الشعب – وعلى بلاطة – يستخسرون الحرية في بقية الشعب، فهل نحن لهذه الدرجة من السفاهة والتفاهة؟!

ما السبب وراء ظهور هذه الفئة من البشر؟ وكيف ترسخ هذا النموذج في العقل المصري ليصبح واحدًا من سماته الرئيسة؟ هل

شاهدناه في المدرسة من خلال بعض المدرسات والمدرسين الذين يُقّبلون أيدي المدير والناظر؟ وهل شاهدناه في أصدقاء الطفولة من أن تكون في عصابة الولد أو البنت الأقوى؟ وهل شاهدناه في المؤسسة الحكومية من موظفين أصحاب نفوس ضعيفة كليلة؟ هل شاهدناه في الجامعة من لحس أقدام العمداء ورؤساء الجامعات؟ هل شاهدناه في القرية من مطبطبي العمدة ودوار العمدة المعين؟ هل شاهدناه في الوزير وجوقة المداحين باسمه مهما كان فعله من كافة الفئات؟.

شاهدناه في كل مكان وزاوية، وأصبح هؤلاء جزءاً من سلسلة السلطة، لابد منهم، فلا يمكن للسلطة أن تعيش بدونهم، فهم كلابه وذئابه، وإذا لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب، هذا هو القانون المفروض على المجتمع الآن، يجب أن تتعلم كيف تكون كلبًا ثم تتعلم كيف تكون ذئبًا ثم تنضم بعد ذلك إلى حاشية الذئاب، أن تدرك بأنفك أماكن ضعف الناس فتنقض عليها، وانتشار الفساد دلالة على انتشار الضعف والوهن وانفكاك حلقات القوة التي كانت تدعم الناس وأولها القانون والنظام.

هنا يبرز التساؤل هل يحتاج السلطان إلى القانون والنظام؟

وأترك لكم الإجابة.

أعود لمجتمع الكلاب والذئاب، الذي ينقض الآن على أراضي الشعب فينهبها، وعلى أموال الشعب فينهبها، وعلى حقوق الشعب فيلغيها، وعلى أعراض الشعب فيغتصبها، فتتحول أجزاء من الشعب إلى كلاب، والكلاب إلى ذئاب، ويسود عقل الفوضى.
(ولاّ انت فاكر عبارة "إنت مش عارف أنا مين.. ولا أنا ابن مين" جاية منين؟). إنها سلسلة التحول.

وعلى ذلك فهذا العمل يؤكد على أمرين، هما: سلسلة السلطة وسلسلة التحول. سلسلة السلطة من جميع أنواع كلاب السلطان أيًا كان موقعهم وقربهم وبعدهم عن السلطان، وسلسلة التحول من خلال العنف المضاد السلبي الذي يقوم به الناس، صحيح هو دفاع عن حقوقهم وتمردهم على بعض السلطة، لكنه حولهم في النهاية إلى مجتمع الغابة (والغابة في الفكر المصري تحتوي معنى مكان للحيوانات المتوحشة، وغابة أيضًا هي أداة لشد أنفاس الحشيش من الجوزة، ونحن ضائعون بين الاثنين)، حيث غاب الضمير والدين والقانون والنظام والعرف، وحل محل كل ذلك سلسلة السلطة.

إن معاناة العقل المصري وفق رؤانا الشخصية هي مجموعة من الخصائص التي انحصرت في سلسلة محددة للسلطة تستخدمها السلطة وفق رؤاها وهواها، لكل خاصية وقت ومكان، ولكل مجموعة من الخواص وقت ومكان، ولكل الخواص وقت ومكان، بل صدّرت السلطة بعض سلوكها المبني على القوة وتغيير القانون إلى بعض أفراد السلسلة فأصبح يتصرف مثلها، ولكن لمصلحتها التي يتصور أنها مصلحته هو الشخصية.

إن عناءنا على المستوى الجمعي هو أن السلطة لم تعد حالة فردية يختص بها مجموعة مختارة من البشر في أعلى موقع في الدولة، بل أصبحت سلطة طفيلية تقع في سلسلة خاصة بذاتها، تتداخل مع جميع فئات الشعب، إنها سلطة أكثر تنظيمًا من سابقتها، أقل تحطيمًا ولكنها أعظم أثرًا، هجومها يتم على مساحات عريضة وواسعة وليس مُركز في مكان أو قطاع واحد، تستعين فيه بكل الأسلحة المحلية والدولية والمحرمة، ولكنها تقوم بإعداد هذه الأسلحة بشكل أشبه بالعرف.

كيف وصل الحال بالمصريين إلى السكنى في القبور وفي منازل تأبى الفئران السكنى فيها بسبب الرطوبة والحشرات والأمراض المتوطنة؟

بيوت ضيقة كثيرة العدد مثخنة بالعلل، ادخلوا إلى حواري شبرا وبولاق الدكرور وبولاق أبو العلا وإمبابة وغيط العنب وكرموز والقرى المنتشرة في ربوع مصر، ما هذه العشوائية اللعينة؟
المشكلة كوننا نحن –وبكمٍ كبيرٍ من الجهل العمدي المقاوم للسلطة تمردًا على ما تفعله بنا – قد شاركنا في ذلك أيضًا، أين كان القانون عند بناء هذه المساكن؟ لماذا أصبح همّ السلطة الحفاظ على نفسها لا الحفاظ على الناس من أنفسهم؟ لأنها – أي السلطة – أصبحت تبادلهم العداء وبشكل دموي قاس لا مجال فيه لرحمة، أبناء المصريين هم الذين فعلوا ذلك في النهاية.

كيف تناسلنا بهذه السرعة المفزعة خلال عشرين عامًا؟، كأن ذلك كان عملاً مضادًا للسلطة والقانون والنظام، فالناس لا ترى سوى ما تريده كأن ما تمّ هو عناد ونكاية في السلطة التي تنادي عليهم بالحد من النسل، كيف لا تتورع بعد ذلك بعض حلقات السلطة – ذئابها – من بيع علف الحيوانات لنا على أنه طعام آدمي، كأن هذه الحلقات تخرج لنا لسانها وتقول لنا: تستاهلوا. كيف يمكن سد جوع هؤلاء بدون مواد كيماوية مُسرطنة وطعام تأباه البهائم، لقد أكلتُ الخضروات في العديد من الدول الأوروبية والإفريقية والآسيوية فلم يكن طعمه أبدًا مثل طعم ما نتناوله، كأننا نتناول في مصر ما تعافه البهائم.

انتهت أسطورة الفلاح المصري، لم أر مثيلاً لرغيف الخبز المصري في العالم كله مثلما رأيته في القاهرة، لأننا تركنا الحبل على الغارب للجميع، للفاسد الكبير والفاسد الصغير على السواء، ولم نواجه الجميع.

علينا الآن أن نواجه أنفسنا ونعترف بأخطائنا؛ حُكامًا ومحكومين؛ حتى نستطيع أن نبدأ عصرًا جديدًا للتسامح، عصرًا جديدًا نقضي فيه على القاتل الذئبي الاجتماعي الحقيقي.

(١٣)

المساواة في الظلم

من أسوأ المقولات التي ظهرت في تراث الشعب المصري (المساواة في الظلم عدل) وهي الفكرة التي عبر عنها (الحكيم) في كتابه (التعادلية) أو ما اصطلحنا عليه باسم الوسطية أو (امسك العصاية من النص)، ونسينا أن نكمل العبارة (لأن ده المكان الفاضي الوحيد ولا مؤاخذة).

لماذا هي أسوأ المقولات؟ لأننا نؤكد فيها على معنى وجود الظلم بكل أشكاله، الاجتماعي والتاريخي والسياسي والاقتصادي والعلمي، كأننا نؤكد كونه قابع في خليتنا، ومما يؤكد ما سبق الإشارة إليه؛ من أنها خلية الخنوع والاستلاب؛ أننا أقررنا الظلم كحالة اجتماعية، وعلى ذلك فلا يتبقى سوى المساواة فيه.

يا إله السماوات... هل وصل بنا الأمر إلى هذه الدرجة؛ أن ندعو الأقوياء والمتسلطين والمتسلقين إلى أن يساووا في الظلم بيننا، وبعد ذلك نسأل من أين أتت حالة الخنوع؟

كيف وصلنا بعد عشرة آلاف سنة من الحضارة وسيادة العالم، إلى أننا نتمنى ونأمل ونرجو ونبتهل، ونبكي على باب السلطان، إلى أن يجعل المساواة في الظلم نبراسًا؟. أرجوكم اقرؤوا العبارة وتحسسوها (المساواة في الظلم عدل)، عبارة رخيصة وسمجة وفاسدة وكاسرة ومحطمة، كأنها تعني (ابتهل إليك أيها السلطان ساوِ في الظلم بيننا).

ضاع معنى العدل والحق والحرية والقانون والنظام، وبقي معنى الظلم الذي يجب توزيعه بيننا بتساوٍ، فسقط العدل الاجتماعي وظهر الظلم الاجتماعي، وسقط العدل التاريخي وحل محله الظلم التاريخي، وسقط العدل السياسي وأتى الظلم والتنكيل السياسي، وظهر أيضًا الظلم العلمي والاقتصادي والأخلاقي. وصلنا إلى أقصى حدود قارة الظلم السوداء الكالحة بقبوله قبولاً طوعيًا. كان يجب أن نقول (الظلم في مساواة بلا عدل)، أو أن الظلم يجب أن ينتهي.

إن النية الحسنة لكاتب هذه المقولة أوقعته في شر أعماله، لقد كان يهدف إلى توزيع الحقوق بأدنى درجة من الظلم بين الناس؛ لأنه يعلم بأن السلطان متجبر وظالم في الأساس، لكنه يعلم جيدًا بأن السلطان الظالم لا عدل لديه ولا مساواة، وأن كلابه وذئابه يسيرون على نفس النهج في التفكير. فإلى من على وجه التحديد وجهَتْ هذه المقولة، للناس، للمظلومين؟

دعونا نفهم ذلك أيضًا، تقول المادة ٤٠ من الدستور: "المواطنون لدى القانون سواء، وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة".

أرجو أن تتساءلوا بينكم وبين أنفسكم، هل تشعرون بأن المساواة تحققتْ بين الناس بعد كل هذه العقود من الثورة، وهل تحققت المساواة فعلاً بعد الثورة مباشرةً، أو بعدها بعشرين أو خمسين عامًا؟
لم يتحقق العدل في ظني.

أيضًا يعلم من كتب ذلك أن المساواة ليستْ عدلاً، وأن الظلم ليس نقيضه العدل، فالظلم يعني تجاوز الحد بما يؤذي الناس، وعلى ذلك فإن محاولة المساواة لابد أن تكون مبنية على ظلم، والظلم في اللغة من فعل أظلم، أي السواد أو ذهاب النور والتحول إلى الليل، وهنا يبدو العدل كمقياس للظلم.
ومنذ متى كان العدل يعني القضاء على الظلم، العدل ميزان للحقوق ومكياله ومقياسه، والظلم أوله تسيب وآخره جبروت، والعدل ليس فيه أبيض أو أسود، مما يعني أن محاولة العدل قد يقع فيه ظلم أيضًا، والعدالة قد تظلم عند تحقيقها، وبالتالي في النهاية تصبح مقياسًا أسطوريًا، لكن لابد من وجودها حتى يشعر الناس بالأمل.

كما أن كلمة المساواة تحمل داخلها نوعًا من الظلم، فلتنظر إلى هذا المثل: ماذا يحدث إذا أخذنا أرضًا كبيرة من فلاح ووزعناها بينه وبين فلاح آخر بالتساوي، أليس هذا هو معنى المساواة، ولكننا في هذه الحالة قد نكون أخذنا أرضًا من فلاح يعمل ويكد ويتعب وأعطينا فلاحًا عاطلاً سالباً "تنبل" يستلقي ومقعدته للريح، هنا تتحقق المساواة ولا يتحقق العدل بل يتحقق الظلم البين.

لقد صوبنا سهمًا قاتلاً إلى قلب الحرية؛ حرية الرأسمالية والعمل والكفاح والكد والجد والاجتهاد، لأننا بحثنا عن المساواة، فقتلنا روح الإبداع وقلب الحرية، وشوهنا معنى العدل لأننا رفعنا من قيمة المساواة، هذا هو ما حدث بالتحديد حين قامت الثورة، وأتى مهندس الإصلاح الزراعي ففعل ما فعل، وحاول أن يُعيد الأمور لنصابها في عهد (السادات)؛ فدمر كل شيء.

هدف نبيل تم تنفيذه بغباء سياسي منقطع النظير، هذا ما حدث للمساواة في بلادنا.

إذن نعود مرة أخرى إلى تلك المقولة التي تشكل جزءًا من خلايا العقل المصري، فلا نحن أقمنا العدل ولا أقمنا المساواة، ورسخنا من

مفهوم الظلم في الوجدان المصري، وها نحن الآن نترحم على كل شيء، نترحم على الماضي (الماضي الجميل) كما نسميه الآن، لأن ذلك يعني النقيض من ناحية أخرى وهو (الحاضر القبيح) والمشوه، ارتفعت قيمة المساواة في بداية العهد الثوري، لتقتل روح الإبداع والخلق والفن في مصر، وأصل الأشياء في فعل الملكية الذي ولد مع الإنسان، وحتى الإسلام لم يدعُ للمساواة بهذه الطريقة الفجة والقبيحة، لقد دعا للتكافل الاجتماعي، ولا ندري سبب الفقر في بلدنا حقيقة، هل هو بسبب الظلم الاجتماعي من جانب، أم سببه (التنبلة) والكسل والتراخي والتواكل من جانب آخر، أم الاثنان معًا؟

حين دخلتْ فكرة المساواة إلى المجتمع المصري، خرجتْ روح الحرية منه، وقُتلتْ، وتم التشهير بها في كل الميادين. هنا كان يجب أن نفرق بين كلمة المساواة والعدل الاجتماعي، المساواة كان يجب أن يكون لها معنى معنوي وليس مادي، بمعنى أن الناس سواسية أمام القانون ليس أكثر، ليس هناك فرق بين غني وفقير أو ابن وزير أو ابن غفير، أو بين متعلم وأمي، أو بين مسلم وقبطي، أو ما يمكننا أن نسميه المساواة أمام القانون. وأما العدل الاجتماعي فيعني مساعدة الفئات المحرومة اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا على النهوض من خلال شبكات التأمين الاجتماعي والصحي والتعليم الأساسي.

أما ما حدث فقد فتت القدرة الاقتصادية للدولة؛ التي خرجت من الثورة والعالم المتقدم مدين لها، كي تكون الآن مدينة لطوب الأرض من الدول درجة ثالثة ورابعة وعاشرة.

لقد اتسمت أفكار ثورة يوليو بالنُبل والوعي لكل الآثار السلبية التي ظهرت في العهد الملكي، لكنها تحولتْ مع الوقت على أيادي بعض أفرادها إلى لعنة شربتْ من دماء الشعب المصري كله، لقد أرادت الثورة أن يلتف حولها الجميع فخاطبت كل الفئات المحرومة، ثم انقلبت على الجميع، انكوى عبد الناصر بآهات المحرومين والمعدمين، حقق لهم أحلامهم سريعًا بعد الثورة، في الطريق كان لابد من بعض الأخطاء، داس على بعض الناس، في الطريق بدأت حلقات السلطة تفعل فعلها، فتم وطأ عشرات الآلاف من المصريين بعد ذلك.

هذه هي فكرة المساواة والتي ظهرت في فرنسا، لقد طبقنا المساواة بطريقة الدبة التي قتلت صاحبها، فاكتسبنا عداوة رجال الدولة من (رجال الإقطاع) والرأسمالية الوطنية، مما دفع البلد بعد سنوات إلى الجحيم، والمصيبة الأعظم أن الذين طبقت عليهم فكرة المساواة الآلاف منهم باعوا أرضهم بعد ذلك بسنوات، ليعود (الإقطاع الوطني) بعد ذلك، لماذا؟

لأننا حاولنا أن نناهض فكرة الملكية التي خلقها الله داخلنا، أو اكتسبناها بفعل التربية، فعل (يملك = to own) الفعل المحرك الأول في التاريخ.

إن قتل روح الإبداع المصرية كانت واحدة من أسبابها فكرة الإصلاح الزراعي، ولكن من عاد بعد ذلك بسنوات في السبعينات عاد وحشًا قاتلاً، كاشفًا عن أنيابه ومخالبه في الإثراء والتربح المشروع وغير المشروع، وهو ما وصل بنا إلى هذه الحالة المزرية الآن.

أشعر بأن كل ما حدث بعد ذلك كان انتقامًا من الثورة ووقوفها مع كل حركات التحرر في دول العالم الثالث، كأن الجميع ينتقم منا، صدقنا الجميع وبدأنا الانتقام من أنفسنا بأيدينا.

المساواة هي المساواة في الحقوق والواجبات حقوق المواطنة وممارسة العقيدة والممارسة السياسية، وفي الوقوف أمام القانون، وفي دعم الدولة، لكنها لم تكن أبدًا تعني تفتيت الرقعة الزراعية ومهاجمة الرأسمالية الوطنية وتدميرها، تلك الأفكار التي اكتسبت تأييد شعبي جارف، والجميع يفهم السبب وراء ذلك، إنها الرغبة في القضاء على الحرمان. ولكن ما الذي حدث، عشرات الآلاف من الآثار السلبية القاتلة، فهل من قام بذلك رأى تلك الآثار في دراسته الأولى، أم اعترف بها بعد ذلك بعشرين سنة على الأقل؟

نحن ندعو إلى العدل؛ العدل الاجتماعي المبني على إتاحة الفرص أمام الأكفاء من أبناء الوطن، وليس التعيين. وبالمناسبة فكرة التنسيق في التعيين ودخول الجامعة فكرة باطلة أدت في النهاية لفوضى كاملة في البلد كلها، ولعل الجميع يلاحظون ذلك الآن، فقد عدنا مرة أخرى للنقطة صفر مع انتشار التعليم الخاص والجامعات الخاصة الأجنبية.

المشكلة في هذه القضية، أنها جزء من سلسلة السلطة، لكنها الجزء المغلوط والراقد في أعماق الناس كتصور ذهني فاضح، بمعنى أن الخنوع الذي نشأ عن فكرة المساواة (طالما ستحصل على نصيبك اشتغلت أو ما اشتغلتش) فلماذا التمرد؟، والظلم حادث مهما فعلت، فلماذا التمرد؟ فلتقتصر دعوتك على نوع من الوسطية في الظلم، هذا هو الطريق المسدود أمام العقل المصري الذي آمن بالظلم كعنصر موجود وفاعل مما أورثه أيضًا حالة من الخنوع والرقاد الذهني.

إذن سلسلة السلطة تتصل بأجزاء متحركة (كالكلاب والذئاب والأرانب)، وأجزاء ذهنية (كالاستلاب والخنوع والفوضى) حديثه وقديمه؛ بعضها تم استحداثه كنوع من التغيير الاجتماعي، وقديمه وجدت عبر التاريخ المصري (القديم). وهو ما يؤكد بأن معاول هدم العقل المصري مستمرة وستستمر طالما هذه هي إستراتيجية السلطة في ترسيخ وجودها، سواء كانت بوعي أو بدون وعي.

(١٤)

الإستراتيجية ومتلازمة القضاء والقدر والثأر

سألتُ صديقي: هل يمكن أن يكون العقل المصري بلا إستراتيجية على الإطلاق؟

تطلع في وجهي بعنف وقال: هل أنت مجنون أو مغيب لتتحدث عن الإستراتيجية؟ أي إستراتيجية تلك التي تتحدث عنها والناس لا تجد (الفراخ) لتأكلها، لم يحدث في العالم أن تخلصتْ أمة عبر التاريخ القديم والمعاصر من عشش فراخها كما فعلنا نحن، وبعد أن انتهينا أعدنا الفراخ للدكاكين مرة أخرى بسعر مضاعف!.

وأدركتُ كم نحن سذج، وكم نحن بُكم، وكم نحن حكماء.

(وسكتْ قليلاً واستطرد) ليست هناك أمة في التاريخ أيضًا حصل نصف أبنائها في سنة دراسية على أكثر من ٩٠٪ في الثانوية العامة لنثبت أننا شعب ليس له مثيل على الإطلاق، كل ذلك في ظل انهيار التعليم، وفي ظل اعترافنا بالطالب المتوسط.

حسنًا، فلتكن الإستراتيجية هي حديثنا التالي، هل تعلم بأن (هارفارد) تنادي الآن بأن أفضل إستراتيجية بأن لا تكون لك إستراتيجية على الإطلاق، ويبدو أننا تغلبنا على (هارفارد) بجلال قدرها منذ عشرات السنين، ولكن أي إستراتيجية تعني؟ إستراتيجية القهر، إستراتيجية الهوان، إستراتيجية الذل، إستراتيجية الفوضى، إستراتيجية التطفيش.

وبمناسبة التطفيش الراجل (صنع الله إبراهيم) كتب في (أمريكانلي) حاجة غريبة جدًا... سألته في توتر: إيه يا سيدي؟ هو إحنا ناقصين كمان (صنع الله إبراهيم)؟

أجاب ضاحكًا: الراجل ده كتب رواية ولا موسوعة عن فساد الفكر اسمها (أمريكانلي)، بيقولك ٩٢٨ ألف عربي هاجروا للولايات المتحدة وأوروبا أغلبهم متعلمين وحاصلين على الماجستير والدكتوراه، بالمناسبة أيضًا منهم ٣٨ عميد لأفضل كليات الإدارة في العالم.

إستراتيجية إيه اللي بتتكلم عنها؟!

ليس هناك هدف محدد نسعى إليه في مصر، ليس هناك هدف واضح، والأفكار المطلوبة للتحقيق على لسان كل مسؤول أفكار عريضة مستحيل تحقيقها لأنها ليست واقعية وهدفها إرضاء الحاكم قبل إرضاء الشعب، فتأتي الأهداف عبارة عن أحلام من الدرجة الثالثة.

نحن نمر بمرحلة يمكنني أن أطلق عليها مرحلة العدمية أو النهليستية (تاني)، كتلك الفترة اللي مرت على أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، طب إحنا ما مريناش بنفس الفترة، لكننا نعيش فترة أسوأ. ها تقؤللي ما فيش إستراتيجية.

الإستراتيجية هدف على المدى الطويل، مش كده، شفت إستراتيجيتنا في محو الأمية، بنجيب ناس ما لهاش دعوة بالأمية وبنحطها على رأس جهاز محو الأمية، وبعد ١٠٠ سنة لسه ما محيناش الأمية، والتعليم اللي قدمناه للناس اللي محونا أميتهم بيه، كان تعليم فاسد، خلاهم أكثر فسادًا وقدرة على التحايل والإغراق في فكر عقيم، دا إذا صح حتى أننا نطلق عليه (فكر).

جميعنا نؤمن بفكرة التوكل على الله، والتي تمحورت مع الوقت إلى حالة من التواكل، لقد أصبحت كل قوانيننا ونظمنا ومؤسستنا هي ردود أفعال لما يقوم به الآخرون، حالة من الفوضى العشوائية غير المتكررة في التاريخ، نحن نموذج للفوضى العارمة، فوضى في كل شيء، حتى أصبح كل شيء يستعصى على العلاج لسببين: هما غياب القانون بشكل قسري، ونيتنا المبيتة في عدم العلاج، لا بشكل كلي، وإنما نعالج بشكل جزئي مشوه يزيد الفوضى فوضى.

كيف يتعامل العقل المصري مع فكرة الإستراتيجية؟ على المستوى الفردي الحياتي اليومي، وسأترك لك الحديث عن المستوى المؤسسي.

ما هي الأهداف التي أسعى أنا وأنت والآخرون إليها، على المدى القصير أو على المدى الطويل، أسمع كلمة (لقمة العيش) أو (خليني عايش) أو (خليها على الله) أو (اللي يبص لفوق يتعب)، أليست هذه هي العبارات المأخوذة من القاموس العامي المصري والتي تؤكد أن الحياة تم اختزالها تمامًا في هذه الألفاظ لتشكل صورة ذهنية عن شكل الحياة نفسها ومن ثم المصير، حالة انسحابية من الرغبة في التفكير، أو أن أقصي أماني (فكرة الإستراتيجية) هو الحصول على الكفاف اليومي الذي أؤّمن به حياتي (ليس هناك هدف آخر)، وأهمية التخلي عن فكرة الصعود إلى أعلى من أجل الراحة ومن ثم البقاء.

طيب إذا كان هذا هو تفسير العقل المصري لفكرة الوجود ومن ثم المستقبل الذي لا يجب أن يكون محفوفًا بالمخاطر، فماذا حين يجلس على مقعد الحكم يتحول إلى شيء آخر؟

الحقيقة المرة في نظري أن لا حاكم واحد في مصر خطط لأن يكون حاكمًا، إنها الأقدار والصدفة هي التي تأخذ بأيديهم، أي إنه لم تكن له إستراتيجية محددة، وتم التخطيط بعد أن ضمن الجلوس فوق المقعد

ولسنوات طويلة. كم قتل (محمد علي) من مماليك وأتباعهم حين وجد أنه يمكن أن يجلس فوق كرسي الحكم؟، ألم يضع (عبد الناصر) الآلاف في السجون والمعتقلات؟، وألم يفعل (السادات) الشيء نفسه مع كل من خالفه؟، هل كان خوفًا على الدولة أم خوفًا على السلطان؟ وهل كانت هذه نية مبيتة أم خلقتها الأحداث؟.

إن كل الذين وضعوا السلطان في مصر على كرسي الحكم كان مصيرهم التشريد والاعتقال والقتل، بل وصل الأمر إلى حد استلاب العقل المصري الجمعي، فحين يُهزم هذا البطل في حرب، فما المانع من عبادة البطل المهزوم؟. وهكذا انتهى بنا الحال إلى ما نحن عليه.

يقول (جوته): "إن نقائص الإنسان مستمدة من عصره، وفضائله وعظمته مستمدة من نفسه".

ولكن ماذا سيقول (جوته) إذا تشابهت كل العصور في التاريخ المصري في النقائص، ألن يترك ذلك ترسبات لعينة في الذات المصرية، (فتترك تأثيراتها السلبية على خصائص هذه الذات)، فينمو بعضها مع الوقت ويُقتل بعضها مع الوقت؟!

وها نحن نرى أن فكرة الإستراتيجية على الرغم من أنها عامل مكتسب وليس وراثيًا بالطبع؛ تصبح فكرة غير مطلوبة ولا معنى لها، لأنها ستؤدي إلى تدمير الذات بشكل سريع، ونحن نفضل تدمير الذات بشكل بطيء. أليس هذا هو الفرق.

سأعود إلى (فرنسيس بيكون) وفي مقولته الشهيرة : "إن أفكارنا صور عن أنفسنا أكثر من كونها صورًا للأشياء"، إذا كان هذا هو ما ترسخ داخلنا، فإن رؤية ما يحدث حولنا لا يعنينا من قريب أو بعيد، فلتفعل أمريكا أو أي دولة في العالم ما تريد، فنحن لا نهتم ولن نهتم، إن عيوننا معلقة برغيف الخبز وحفنة الملح، وطالما هما معلقتان على الحبال أمامنا يوميًا فلا يجب أن نتطلع إلى شيء آخر، لا يهم من صعد إلى القمر، ولا يهم آلاف الأقمار الصناعية التي ترصد أحوالنا اليومية، حتى إنني أكاد أقسم بأنهم في النهاية سيتركوننا نفعل ما نشاء، لأننا نكرر أفعالنا وأنفسنا ورؤسائنا وتاريخنا وعصورنا، لا جديد تحت الشمس، فلماذا ينفقون على من لا يتحرك؟

إن من يتحرك منا أو يحاول الحركة كمثل ميت ينقضي قبل طلوع روحه وقبل انقضاض ملاك الموت عليه، هل هذه هي الحركة الوحيدة التي أصبحتْ مقبولة في المجتمع، الإستراتيجية تعني في أبسط مفاهيمها حركة منظمة إلى الأمام.

تعالوا نتطلع إلى واحدة من رؤى أفضل الشركات في العالم، شركة (أديداس) مثلاً - التي تبيع الأحذية للعالم كله - دعونا نتأمل مجال هذه الرؤية: "المستحيل ليس حقيقة، إنه مجرد رأي".

إستراتيجية شركة تبيع الأحذية -قسمًا بالله العلي العظيم تبيع الأحذية- ولنسأل أنفسنا جميعًا ما الذي نريده لأنفسنا، ولوطننا ومؤسساتنا؟

لن نجد، وإن وجدنا فإنه كلام لا معنى له، كلام أحمق يردده حمقى لا يفعلون شيئًا سوى الكلام، ويا أصدقائي قال الفقهاء "لو لم يتكرر الكلام لنفد".

إن كل التطورات في مصر تصب في صالح بعض الأفراد وليس الدولة، ليس النظام System فليس لدينا نظام Order، لدينا عشوائية بعض الأفراد، وهم الذين يتركون بصمتهم في العالم، أما النظام Order فقد مات وشبع موتًا، أصبح النظام جزءًا من فكر فرد فاسد، كان سلاحه الوحيد الوقت والزمن، وفي النهاية مات كل شيء.

تركنا أنفسنا نهبًا لفكرة القضاء والقدر، وفكرة الإستراتيجية تناهض فكرة القضاء والقدر، فالإستراتيجية بحث عن المستقبل المبني على إرادة الإنسان، أما القضاء والقدر فهو المستقبل الذي لا يعلمه سوى الله وحده، وإذا كنا نحتاج إلى الأولى، فنحن في حاجة أيضًا إلى الثانية

حتى نستطيع أن نطمئن على مستقبل دولة بأكملها كانت تسود العالم كله بفنها وفكرها وعلمها، ولكن ها هي كل مؤشرات التنمية السياسية والاقتصادية وحقوق الإنسان والشفافية والنزاهة والمرأة والمسائلة تضعنا في واقع القاع (البكابورت المسمي خطأ بالواقع وفقًا لرأي البعض)، وحتى بعض الدول التي لم تعرف التعليم بعد، أو تلك الدول التي تحترق بسبب حروب أهلية تأكلها، هذه الدول سبقتنا بعشرات الأشواط على مؤشر التنمية، أما ماذا يحرقنا، فهي حالة اللا مبالاة نحو المستقبل، الناجحون فقط هم الذين لديهم ذلك، والحسدة والحقدة واللا مبالون والذين يسمعون عن كلمة إستراتيجية للمرة الأولى هم جملة الفاشلين والمتورطين والفاسدين.

ما الذي يدفعنا إلى أن لا يكون لنا رأي في المستقبل؟
سنوات الحكم الطويلة للحكام والتي لا تغير شيئًا في واقع وأحوال المصريين، فمازلنا نرزح تحت عبء التخلف والتبعية والتراجع والنكوص والارتداد.

فكرة القضاء والقدر لا تفرق بين مسلم ومسيحي، التراث المصري من التواكل، التعليم الفاسد، النماذج الفاسدة، ألم أقل لكم إن الأمور متشابكة للغاية. وعلى الرغم من السواد المستشري، فما زلت أري

بصيص الضوء، لكن الرعب داخلي يمتد حين أفكر بأنه حتى هذا البصيص يمكن أن ينطفئ.

من أسوأ الأشياء التي أعيشها كل يوم، أنه على الرغم من معرفتي بعشرات من أساتذة الإستراتيجية المصريين المعروفين على المستوى العالمي ويقومون بإلقاء محاضرات في العالم كله، فإن هذا الوطن لا إستراتيجية له، كأن الله يعاقبنا بوجودهم بيننا.

لقد أصبحتْ أسوأ أحوالنا الآن لا تعني فقط توقفنا عن المشاركة في تطوير الإنسانية، بل أصبحت تعني انسحابنا من ركاب تطوير الإنسانية، فهل هانت علينا جميعًا سبعة آلاف سنة من تطوير الإنسانية حضاريًا، وارتضينا الذل والهوان إلى هذه الدرجة، إلى الدرجة التي استكنا فيها إلى أنه ليس لدينا أي قدرة على فعل أي شيء؟
إنه إحساس مهين وقاتل.

الله يخرب بيتك يا (صلاح يا جاهين):

مُر الكلام زي الحسام *بقطع مكان ما يمـر*
أما المديح حلو ومريح *ينفع لكن.. بيضـر*

(١٥)

الإغراق الديني والثأر

الدين من الموضوعات الشائكة، ولكن هناك فرق بين التدين والإغراق في التدين، بين السماحة والقبول وبين التطرف، سواء كان ذلك في الإسلام أو المسيحية، فلم أر في حياتي مسلمًا أو مسيحيًا، لقد رأيتهم مصريين وأحببتهم كمصريين ومارست حياتي معهم كمصريين.

الإغراق الديني لدى الإنسان المصري حالة مستعصية الآن، ما هو مكمن التطرف الديني؟ وهل كان الإنسان متطرفًا دينيًا، أم أن بينه وبين التطرف شعرة واحدة كانت دائمًا موجودة، لكن لا أحد كان يشعر بها؟

إن السلوك الديني لدى الإنسان المصري، هو سلوك واحد تقريبًا لم يتغير، أيًا كانت الديانة التي يدين بها، لكن الملاحظ الآن أن هناك حالة من تغييب العقل تمامًا عند التفكير في أي مسألة تتعلق بالدين، ما السبب في ذلك؟

ها هو مقطع من أهم ما كتب (أرسطو) يُنَظِّر لتلك المسألة:
"على الحاكم أن يكون متدينًا وينمي النزعة الدينية في بلاده، كما ينبغي أن يظهر الحاكم؛ وخصوصًا الحاكم المطلق أو المستبد؛ اهتمامه في إقامة شعائر الدين وعبادة الآلهة، لأن الناس إذا اعتقدوا بتدين الحاكم وتوقيره للآلهة، يقل خوفهم من نزول الظلم بهم على يديه، ويقل ميلهم وتدبيرهم في التآمر عليه، لاعتقادهم بأن الآلهة سوف تحارب إلى جانبه".

ألم يفعل ذلك كل الحكام المصريين في الملكية والجمهورية، ولكن هل وقف الله بجانبهم؟ هل وقف الله بجانبنا لأننا مسلمين ومسيحيين حاربنا عن قناعة في كل ما خضناه من حروب؟
إن انتصارنا أو هزيمتنا كانت مبنية على أسباب عقلية وعلمية، ووقف الدين حاميًا ودافعًا وباعثًا ومحفزًا على النصر، وليس مغيبًا لإرادة الفرد في الحصول على النصر.

لقد كشف (أرسطو) عن دور الدين لدى الحاكم منذ آلاف السنوات، ولا أشك أن هذا الكشف كان موجودًا منذ عشرات الآلاف من السنين أيضًا، مما يؤكد أننا مازلنا في مرحلة طفولة الأفكار والأفعال،

طالما ليس هناك جديد، ولكن ماذا يعني ذلك الآن؟ هل يعني أن الحاكم يحض على الإغراق الديني والتطرف، لقد فعلها (السادات) في السبعينيات فكانت وبالاً على الجميع ومازالت، أخرج مارد التطرف الديني من القمقم.

ما الذي يدفع الناس للتطرف؟

الظلم، الاستبداد، البحث عن حلول ليست في متناول البشر، التعليم الخاطئ، تربية الأم –الأم بالذات– فالأم المصرية معروف عنها التدين أكثر من الرجل، وهي التي تحتضن أطفالها وتبث فيهم كل القيم والمخاوف،ولأنها تعيش كمواطن من الدرجة الثانية في البيت مع أدنى حظوظ التعليم، تصبح المسألة قنبلة موقوتة، تتسع مع تعليم متواضع ومشوه أو مع عدم التعليم فهي التي تبث في الأبناء –رجال المستقبل– كل أنواع السلوك المرتقب من الثأر إلى العدوانية إلى الخنوع والتقهقر، ومع معرفتنا بهذه الحقيقة، أو شبه الحقيقة، فالمرأة المصرية محلك سر منذ أيام مينا واخناتون وحتى الآن. وكم من شعراء وفنانين وفلاسفة تغنوا بها، دون أن يتحقق لها على أرض الواقع سوى مكاسب هزيلة، وأسلمنا الشعب كله بكل أفراده إلى مواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة مهضوم الجانب ليعيث في عقله فسادًا.

أتوقف أمام أسئلة قراء الصفحات الدينية ومشاهديّ برامج التليفزيون الدينية ولكل صاحب كهنوت، هل أدخل المسجد بقدمي اليسرى، أم قدمي اليمني؟ هل هذا هو الدين، هل هذا هو العقل الذي منحنا الله حتى نلغيه تمامًا ونهيل عليه آلاف الأطنان من الأتربة والقاذورات التي تملأ كل شوارع المحروسة والتي تركناها مع سبق الإصرار والترصد كنوع من التمرد على كل ما يحدث. أهملنا العقل تمامًا، احتلت الذاكرة كل المقاعد، وتوعدنا الذكاء والإبداع الفردي بكل أنواع العقوبات من القتل إلى السحل والسجن والحرق وسكين في الرقبة، ولا مانع من بضع شتائم إذا لم تستطيع أن تفعل شيئًا في النهاية، هل نحن نحترم عقولنا وإبداعنا وذكاءنا؟ لا أعتقد.

ما الذي يعود بنا إلى الوراء؟ إن الإسلام دعوة إلى إحكام العقل، وروافد الإسلام لم تخلو من الاجتهاد، والإسلام يدعو إلى طلب العلم في كل مكان، المعرفة، العقلنة، إذكاء روح الإبداع، فهل هذه هي الأسئلة التي تُسأل؟ لماذا؟ لأننا قتلنا روح العقل وقبلها قتلنا روح الإرادة والإحساس في الإنسان، في المدرسة والجامعة والمؤسسة والصحيفة، لأننا لا نطيق من يفكر ولن نطيقه، لأننا منذ عهود الملكية الأولى، الفرعونية واليونانية الرومانية حتى الجمهورية، لا نطيق التفكير المتعارض معنا، نحن نحيي التفكير الذي يوائم أغراضنا وأهدافنا.

لقد روعتني تلك الحادثة التي انتحرت فيها امرأة لديها ثلاثة أطفال من زوجها الذي تعشقه، هذه المرأة المتدينة التي تصلي وتصوم وتزكي وتستغفر الله، حين علمتْ بأن زوجها قد رضع على أخيها وأنه بذلك يعتبر أخًا لها في الرضاعة، بعد حياة طويلة وعدة أطفال، يأتي من يقول بأن التطليق واجب، وبأن الأطفال ليسوا باسم الأم، فلم تجد المسكينة طريقًا آخر للنجاة سوى الانتحار! الانتحار الذي أودى بها إلى أن تموت كافرة؟ ماتت كافرة مرتين؛ مرة لزواجها الذي لا يتفق وشروط الفتوى؛ ومرة لانتحارها وفق رأي الفتوى.

هناك المئات والآلاف من القصص التي تعبر عن تمسك الناس بالدين شكلاً دون إدراك حقيقي لمضمونه وأهدافه، اختلطت كثير من الأساطير بالدين كأنها ردة للعقل والتعليم والعلم، لم يتوقف الدين الإسلامي في العصور الزاهرة عن تطوير المجتمع والفرد، وها نحن في النهاية لا تمسكنا بالدين ولا بأهدابه، وأمسكنا عن التطور أيضًا بترهات وشكليات قاتلة، فأصبح العري والدعارة هما التحضر والحرية. يا لها من مأساة حقيقية نعيشها جميعًا.

ثم ما هذا الانتشار الغريب لثقافة السحر والشعوذة حتى بين أغلب عتاة المتعلمين، ناهيك عن الأميين وأنصاف الأميين وأشباه المتعلمين، خاصة بين النساء، ما هذا العدد الهائل من البشر الذي يزور الأضرحة ويتمسح بها وبأتربتها وبأمراض من سبقوهم إليها، لا مانع من التوسل بالأولياء الصالحين وآل البيت، ولكن يجب أن يُبنى ذلك على درجة من التعليم والمعرفة.

نحن في أزمة حقيقية، لقد ورثنا أفكار كثيرة دينية – مسلمون ومسيحيون – ولكن باب الاجتهاد لم يغلق، وباب الفكر لم يغلق، وما أُفتي فيه من قبل منذ ألف سنة، يستحق الأمر الآن أن نعيد دراسته من جميع الاتجاهات، خاصة في ظل التطور التكنولوجي والمعرفي الذي يجتاح العالم منذ عشرات السنين.

المشكلة كون العقل الديني المصري – مسيحيون ومسلمون – متشابك، إن مراسم الدفن والاحتفاء بليلة الأربعين للميت والذهاب للمدافن في المواسم وتوزيع الطعام على الفقراء، كله سلوك متوارث من الحضارة الفرعونية؛ وصل إلى المسيحية والإسلام، ويفعل ذلك المسلمون والمسيحيون على السواء.

حسنًا، إن نظرتنا للدين في العقل المصري لا علاقة لها بجوهر الإسلام أو المسيحية، دائمًا تلك المجموعة من الأفكار التي تم توارثها فأجبرت الناس على الخنوع وعدم رفض ما يأتي به السلطان - أيًا كان هذا السلطان – لقد أسأنا تفسير عبارة أولي الأمر، وكيف نطقت مذيعة مصرية – امرأة – بمفهومها لعبارة أولي الأمر بهذه البساطة وهذا التفكير، إنها عبارة آلية لا مكان للتفكير فيها، أوهام القبيلة والعقل والمسرح التي أشار إليها بيكون منذ خمسة قرون أو يزيد، هنا جوهر المشكلة الحقيقي، لم يكن الإسلام رافضًا للثورة ولعلّ عبارة أبو ذر الغفاري: "عجبًا لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج شاهرًا سيفه على الناس" واحدة من أقوي عبارات التمرد في التاريخ وليس في العصور الإسلامية وحدها، وما دمت ارتضيت التمرد في لقمة العيش فالتمرد وارد إذا تعلق الأمر بالحرية أو الديمقراطية أو غيرها، ولكننا فسرنا كل شيء خطأ وارتضينا التواكل العقلي بينما كان الإسلام في العصور الزاهرة يكتسح العالم فكرًا وترجمة وإشعاعًا حضاريًا.

المشكلة أن جزءًا من العقل المصري – إن لم يكن كله – عبارة عن موروثات دينية وثقافية اختلط فيها الحق بالباطل والصحيح بالخطأ، إن الهوية الدينية للعقل المصري هوية تراثية، إنها قضية شائكة تحتاج

حوارًا طويلاً ، وآلاف الصفحات، وإعادة لترتيب الأوراق، والعلاقة بين الحاكم والدين هي علاقة فرض لسطوة الحاكم باسم الدين، وعلاقة سطوة الخيال المريض حين كان يجب أن يسطو العقل، مشاغبة أحاسيس الإنسان العادي المتعلم وليس المثقف.

لم يكن الإسلام يومًا ضد فكرة تحرير العقل، ولعل أسماء مثل (الغزالي) و(ابن رشد) مازال بريقها يشع إلى اليوم، فمن قال إن الإسلام ضد حرية الفكر؟

لكننا كبلنا العقل في النهاية، كبلناه لصالح السلطان، وولي الأمر، ورب الأسرة، وصاحب المحل، والميكانيكي، ثم تركنا كل ذلك لردة فعل جماعية لا يسعني سوى أن أسميها بالعبثية التغييبية.

في الوقت الذي كان يجب أن يستخدم فيه الدين لتحرير الناس من عبودية الفرد السلطان، تحول إلى تقييد الناس بأفكار خيالية وتخيلية، كأن الأرض والوطن لم يعودا موجودين، أصبحنا ندمر كل شيء والدين واقف يتفرج ويهز رأسه في أسف، ندمر أنفسنا وأبنائنا ووطننا، وأصبح الضمير الديني الذي منحنا الله في خبر كان، موجود ولا يعمل، ولم يعد هناك مكان لروح التسامح وروح الطمأنينة، أصبحتْ حرب شهداء بين السلطان، ورجال دين باحثين عن ترسيخ مقعد الحاكم، ورجال دين يتطلعون إلى مقعد الحاكم.

هذا هو ما وصلنا إليه في النهاية، علاقة خوف من الآخر، علاقة عدم ثقة في الآخر، علاقة دم يجب أن ينثر على الأرض دون أن نفكر لصالح من، ما هذه الحروب الطائفية الغريبة في هذه الأوقات بالذات ولصالح من، كأنه كتب علينا أيضًا من جملة سلسلة الثأر أن يكون التطرف الديني جزءًا منها يذكيها ويشعلها.

إن روح التسامح بين المصريين كانت مضرب الأمثال عبر التاريخ..
فماذا فعلنا بأنفسنا؟

(١٦)

المرأة وجذوة الثأر

لا يمكن تناول العقل المصري، دون الاقتراب من بعض القضايا الشائكة خاصة تلك المتعلقة بالمرأة المصرية، فالمرأة المصرية هي نصف العقل المصري، وكل الحديث الذي سبق موجه للرجل والمرأة معًا، أما هذا الحديث فموجه للمرأة الحاضن الأول لهذا العقل سواء كان عقلاً ذكوريًا أو أنثويًا. وعلى الرغم من وجود العديد من النماذج النسائية الخلاقة على المستوى العلمي والثقافي والسياسي والفني، ولكن تظل مشاركتها في الحراك الاجتماعي دون المستوى المأمول لأسباب عديدة.

فما زال القهر الذكوري هو سمة المجتمع المصري، ومازال الخلاص من سلسلة القهر واحدًا من أهم التحديات التي تواجه المرأة المصرية.

كذلك مازالت المرأة المصرية تلعب دورها في بناء العقل المصري وفقًا لمفاهيمها الموروثة، ووفقًا للمفاهيم الانطباعية الأسرية التي تكونت فيها، فما زال الثأر في صعيد مصر تقوده النساء، في ذات الوقت الذي ترزح فيه امرأة المدينة تحت نيران سلطة الثأر وسلسلته اللا متناهية.

وعلى ذلك فإن المرأة المصرية تعد رافدًا لكل من القوة والضعف في العقل المصري الجمعي، هذا العقل الذي - بناء على العديد من ملاحظاتنا السابقة - يعاني الكثير من التشوهات الفكرية والقيمية.

المرأة كابنة يُلاحظ عليها اختلافات وفروق اجتماعية في النصف الأول من الخمسين عامًا الماضية، والنصف الثاني منها، وربما يعود ذلك إلى الفروق بين سياستين حكما الدولة المصرية، ما بين سياسة الانغلاق وسياسة الانفتاح، وإذا ركزنا على وجودها في النصف الثاني نجد العديد من الظواهر الايجابية والسلبية التي حكمتها، منها الحراك العالي في التعليم والتوظيف والممارسة السياسية، لكن ثمة ظواهر أيضًا تدل على أنها شهدت تراجعًا على المستوى الديني وعلى المستوى السلوكي الفردي أحيانًا، وظل العامل الاقتصادي ضاغطًا وطاحنًا بين فكيه كل شيء، لنرى نموذج البنت التي تُباع تحت اسم الزواج في الريف المصري، ونرى الخادمة التي تحولت إلى البغاء في المدينة، ونرى ابنة المدينة التي أفقدها الإعلام التليفزيوني والسينمائي هويتها حيث يركز فقط على الفنانات والنماذج المشوهة في المجتمع، ويخلق نموذجًا جديدًا تحلل من كل الروابط القيمية والأخلاقية في ظل انتشار حاد للزواج العرفي والعلاقات الجنسية المفتوحة.

وهناك؛ كما سبق وأشارت العديد من التقارير في مركز البحوث الاجتماعية والجنائية التي ركزت في دراساتها على هذه الظواهر ومحاولة التعرف على السببية خلفها؛ ولم تخرج في أغلبها عن بريق العطور والجينز والسجائر الأجنبية والملابس الداخلية.

أيضًا يلاحظ انسحابها من الحركة السياسية عدا القلة النادرة، وإن كان يلاحظ أيضًا اعتمادها على ذاتها في اتخاذ قراراتها في حياتها في هذه المرحلة من العمر، مما يشير إلى تأثرها بالاتجاهات الغربية، وقد يكون ذلك صحيحًا من جانب، لكن هناك أيضًا ارتخاء قبضة الأب والأم بسبب الضغوط الاقتصادية والاجتماعية من جانب آخر، وهو ما لا يمكن إنكاره.

وبالنسبة للمرأة الأم أو الزوجة، فإنه يلاحظ ارتفاع حالات الطلاق في المجتمع المصري ليصل في أقصاه إلى ٥٠٪ من حالات الزواج، وإلى ٤٠٪ في أدناه، مما يشير أيضًا - وكما يقول المحللون الاجتماعيون - إلى ضغوط الحياة الاقتصادية وعدم قدرة الذكر على تلبية احتياجات الأسرة الجديدة الناشئة، أو عدم توفير أدنى متطلبات الإحساس بالأمان الاجتماعي أيًا كان تفسيره. يضاف إلى ذلك أيضًا ارتفاع قوة شخصية المرأة في مجابهة قهر الرجل وتحول هذا الشكل سريعًا إلى

الرغبة في الانفصال والاعتماد على الذات عند أول محاولة منه لفرض سيطرته، أو عند ملاحظة ضعفه الاقتصادي والشخصي والاجتماعي.
وعلى الرغم من وجود العديد من الدراسات المتعلقة بهذه الجوانب في أقسام العلوم الاجتماعية والنفسية إلا أنها - ككل علم في مصر - تُلقى على رفوف المكتبات، ولا يطلع عليها أحد.

إن ظواهر أو نماذج المرأة الناجحة في المجتمع المصري يجب الوقوف أمامها ودراسة أسرار هذا النجاح وبيئته، كما أن دراسة مدى تأثير الذكر في دفع المرأة للظهور في المجتمع العلمي والثقافي والسياسي تحتاج أيضًا إلى دراسات مستفيضة للكشف عن الدوافع والغايات وتوجيهها الاتجاه الصحيح.

يتبقى السؤال الأهم في هذه المقولة وهو: ما هي حالة عقل المرأة المصرية الآن؟ وهل يعاني ما يعانيه العقل المصري الذكوري؟ وهل هناك فروق كبيرة بين العقل الذكوري والأنثوي؟ وهل إذا وجدت هذه الفروق فهل تدفع العقل إلى اتجاهات متخالفة ومتعارضة أم في اتجاه واحد؟. بمعنى هل سلم القيم لعقل المرأة المصرية؛ هو نفسه سلم القيم لعقل الرجل؟

الحقيقة إنني لم أحاول في المقولات السابقة الإشارة إلى فروق بين كل من عقل الرجل وعقل المرأة في مصر، ولكن من المؤكد أن هناك فروقًا قيمية واجتماعية معينة، فالمرأة هي من يقع عليها الضغوط أكثر من الرجل، وهي تمثل في نفس الوقت نهاية حلقات سلسلة السلطة، كما أنها تكاد تختفي في متلازمة السلطة.

المرأة عبر التاريخ تعودت أن تدفع الرجل إلى خارج حدود إمكاناته وقدراته، وهي التي تدفعه للأمام أو إلى الخلف، وإذا كانت مأثورة نابليون Chercher la femme فإنني أعتقد أيضًا جازمًا أن هذه المقولة ناقصة حين نتعرض للمرأة المصرية إن لم نتبعها بعبارة Chercher l'homme aussi أي ابحث عن الرجل أيضًا، وربما من الأفضل أن نقول ابحث عن الطفل، أسوأ ما صنعنا في مجتمعنا، فلا أعتقد أن المجتمع الذكوري يمكنه أن يدفع بامرأة - إلا في حالات محدودة - دون أن يكون ذلك لوضعيتها الشكلية والجسدية وإمكاناتها اللغوية أو قربها من مسؤول أو متخذ قرار بشكل أو بآخر، وهنا تعود فكرة متلازمة السلطة بشكل أو بآخر، وإن ظهور المرأة كمسؤول في بعض الحالات القليلة لم يرتبط إلا بدفع جمعي لها لأنها تحقق مطالب محددة لهذا المجموع، مما يعني أنه مازالت تسيطر علينا أفكار متعلقة

بدونية المرأة ودونية عقلها دون أن يكون ذلك صحيحًا. فنحن لم نصل بعد إلى مرحلة أن المرأة نصف المجتمع وأن ما يقال لغو باطل لم يتحقق، فعبارات مثل المرأة للخدمة والفراش مازالتْ سائدة كأننا نتعامل مع حيوانات تقدم لنا خدمات محددة.

إن صفاء العقل المصري الجمعي بأكمله لن يتحقق دون وضع المرأة في مكانتها الصحيحة.

تبرز أهمية المرأة المصرية في أنها المحك الأول الذي يواجهه الإنسان في حياته، وكل القيم والأخلاقيات والسلوكيات التي يكتسبها تكون هي منبعها الأول والدائم غالبًا، وفي اعتقادي أن التركيز على محو أمية المرأة أولاً يجب أن يسبق أي مشروعات قومية أخرى، بل محو أمية الرجل نفسه، وإعادة بناء العقل النسوي لدينا يجب أن يسبق أي حديث أو أي تخطيط، ويجب التركيز في هذا المحك على دور الثقافة على إعادة تشكيل عقل المرأة وليس التعليم وحده، بل يجب التركيز على الثقافة الشخصية والمجتمعية بجانب محو أميتها الهجائية وبيان أهمية الدين والقيم كالجمال والفن والأدب والفلسفة، ومن هنا يقتضي الأمر التمحيص في القائمين على محو الأمية، حيث في ظني أن مشكلة محو الأمية في بلادنا تركيزها على الجانب التعريفي باللغة والرموز

وليس الجانب التفسيري لما يمكن أن تلعبه اللغة، الجانب الفكري والثقافي وكيفية توجيه الأسرة بأكملها، وبسبب هذا العيب الخطير في التعليم تم خلق منظومة أسميها عبث التعليم حيث إنه خلق في النهاية حالة إرادية ولا إرادية في تهشيم كل أنواع القيم الحميدة.

ثمة عديد من المشاهدات التي رأيتها رأي العين في المجتمعات المتقدمة حول دور المرأة في الأسرة وكيف يمكن لامرأة واحدة مثقفة أن تجعل الأسرة جميعها تسير في ركابها. هذا هو النموذج المطلوب الآن.

الكلمة الأخيرة

عصر التسامح .. ضوء آخر النفق

لا يمكن لنا أن نُضمد جراح الوطن دون أن نضمد جراح أنفسنا، بيننا وبين ذواتنا، بيننا وبين الآخرين، بيننا وبين السلطة.

ولا يمكن لنا أن نسير في الإصلاح إذا لم نرفع من قيمة التسامح.

ولا يمكن لنا أن نسير في الإصلاح دون أن نبصر جميعًا هذا الضوء القادم من نهاية النفق.

ولا يمكن لنا أن نسير في الإصلاح دون أن نعي بأن هناك أخطاء جديدة تولد علينا أن نعالجها باستمرار ودون توقف.

وأخيرًا، لا يمكن لنا أن نسير في الإصلاح دفعة واحدة، وإنما علينا أن نختار من خلال حوار وطني البؤر المشتعلة فنبدأ بها، مع وجود إستراتيجية قومية ذات سيناريوهات متعددة، إستراتيجية مرنة تمكننا من التأقلم والتوافق والتعايش مع الأحداث العالمية، واستيعابها، والمشاركة فيها، ومحاولة تغييرها لصالحنا؛ ما أمكن ذلك.

كيف لنا أن نضع علاجًا لمتلازمة السلطة؟

كيف لنا أن نضع علاجًا دون القضاء على هذا القاتل التسلسلي الاجتماعي؟

وكيف نعيد احترامنا لذواتنا ونتخلص من فوضى العقل، وذئاب السلطان، وكل ما جثم فوق صدورنا لسنوات؟

وكيف لنا أن نضع علاجًا دون أن تؤمن السلطة التنفيذية في الدولة بأنها رقم (ثلاثة) في سلم الأهمية للوطن، وليست رقم واحد أو حتى اثنان؟

وكيف لنا أن نضع علاجًا دون أن نعيد للاقتصاد عافيته وللمواطن كرامته وآدميته، وهو ما يضعنا أمام إشكالية نبدأ بمن بالدولة أو بالمواطن، بالمؤسسة أم بالفرد، بالمجتمع أم بالإنسان؟

عصر التسامح يعني انخفاض قيمة الثأر بكل أشكاله إلى أدنى المستويات لدى الناس، ويعني أيضًا ارتفاع قيمة القانون الذي أصبح كل صاحب جاه أو كل ذي رغبة في الانتقام غير المعلن يغتصبه صباحًا ومساء.

يعني أيضًا وصول ذراع القانون لكل المستويات في حلقات السلطة دون تفرقة.

ويعني أيضًا احترام عقل المواطن وجسده وروحه.

ويعني عقد اجتماعي جديد في أقسام الشرطة.

ويعني احترام آدمية المواطن في الشارع والمؤسسة.

يعني إعلاء قيمة الرقابة الداخلية وسيادة القانون ودولة المؤسسات.

عصر التسامح يجب أن يبدأ الآن، فهل نكف عن الاتهامات المتبادلة واجترار أخطاء الماضي؟ وعن ممارسة طبقية محرمة؟

هل نكف عن اجتزاء أنفسنا واجتزاء الآخرين؟

هل نكف عن الإمساك بمعاول الهد والهدم والتحطيم والتكسير والتهشيم؟

هل نكف عن الإغراق في العنف والعنف المضاد؟

هل نكف عن التضحية بأبنائنا وبناتنا والعبث بمستقبلنا؟

هل نكف عن سلسلة القهر والرغبة العنيفة في انتهاك حقوق الآخرين؟

هل نكف عن ترقيع القوانين؟

هل نكف عن السجون والمعتقلات؟

هل نكف عن انتهاك جسد وعقل وروح أنفسنا بأنفسنا؟

هل نكف عن الفساد وتغطيته وموارته؟

هل نكف عن سلسلة الفساد؟

هل نكف عن المتاجرة بأنفسنا وبالوطن؟

هل نكف عن أكل الحقوق وشربها وهضمها وتبرزها؟

هل نكف عن توسيع الجروح وغلقها الملح بها وشرب دماء الجميع؟

هل نكف عن تلويث كل شيء في الوطن؟

هل نكف عن الوطن؟

عصر التسامح يجب أن يشهد عقدًا اجتماعيًا جديدًا، غير مبني على العلل والأمراض والأعراض التي ذكرتها فيما سبق من صفحات.

عصر التسامح يجب أن يبدأ مع انتهاء تصرفاتنا غير الناضجة – على الرغم من ثقافتنا - ردًا على تصرفات الآخرين غير الناضجة.

عصر التسامح يجب أن يبدأ من إدراكنا أننا أمة صنعت التاريخ ولا يجب ولا نقبل ولا نسمح بأن نقتل بهذا الشكل الرديء في هذا الزمن الرديء، إننا صناع الإنسانية والحضارة، ويجب علينا مرة أخرى أن نعيد صناعة الحضارة في هذا العالم. إذا كنا جزءًا من السلام العالمي فيجب أن نكون جزءًا من الحضارة العالمية بإعلاء قيمة العلم واحترام حقوق الإنسان والمواطن وعدم استهباله واستعباطه، برغبة كل رموز الحكم المؤكدة في الإصلاح، وليس الترقيع والتركيع، وليس بأساليب الاستغناء عن ملايين الناس لصالح بضعة عشرات من الناس.

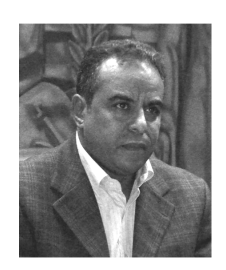
عصر التسامح يعني أن نترك كل آلامنا وأحزاننا وأمراضنا خلفنا، وأن نبدأ من جديد باستراتيجيات مرنة لكل ما يحوطنا، وأن نبدأ بالترحيب بأفكار بعضنا البعض.

لقد وصل الأمر إلى أن هناك اتجاه شائع لتسفيه كل رأي وكل مقولة، وأصبحت الفردية سمة كل التصرفات، ولم يعد التلاقح الفكري الجمعي موجود، أصبح نوعًا من الرذيلة، لفقدان كل إنسان فينا الثقة في كل شيء.

عصر التسامح هو عودة الثقة في كل شيء.

وعلى ذلك يبقي سؤالي الأخير:

هل عصر التسامح حلم، أم بعضٌ من يقين باقٍ كالأبد؟



د . زين عبد الهادي

- أديب وروائي وأكاديمي مصري من مواليد عام ١٩٥٦
- رئيس قسم المكتبات والمعلومات بكلية الآداب جامعة حلوان منذ ٢٠٠٤
- شغل منصب مستشار المعلومات وتطوير النظم بالمنظمة العربية للتنمية الإدارية منذ ٢٠٠٥ حتى أكتوبر ٢٠٠٨
- حصل على درجة الدكتوراه في علم المعلومات من كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٩٨، وكانت أطروحة الرسالة بعنوان "مراصد البيانات المباشرة في مصر: دراسة لواقعها والتخطيط لمستقبلها".

- من أعماله الأدبية والفكرية:

١. المواسم : رواية . دار العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م

٢. التساهيل في نزع الهلاهيل : رواية

الطبعة الأولى : الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠٠٥

الطبعة الثانية : مؤسسة شمس للنشر والإعلام، عام ٢٠٠٨

٣. مرح الفئران : رواية . دار ميريت للنشر، عام ٢٠٠٦

٤. دماء أبوللو : رواية . دار ميريت للنشر، عام ٢٠٠٨

٥. نقد العقل المصري : مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠٠٩م

- البريد الإلكتروني : zhady_411@yahoo.com

فهرس


شمس
للنشر والتوزيع
٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤ (+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢)
www.shams-group.net